على قيد الحياة

تأليف

كريستيان بوبان

ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

صفحة 7

«كريستيان بوبان – Christian Bobin» كاتب وشاعر فرنسيّ من مواليد العام 1951 ببلدة «كروزو – Creusot» الفرنسيّة، ألّف عددا من الأعمال الأدبيّة، إحالات عناوينها متواشجة في ما بينها، وكأنّها قطعُ أحجية واحدة، نذكرُ من بينها: فستانُ حفلة قصير، وسيادة الفراغ، ومديحُ اللاشيء، والمتدنّي، والجزء المفقود، وإيزابيل بروج، وعصيّة على التوقّع، وعلى قيد الحياة، وبورتريه شخصيّ مهدى إلى مدفأة، وجاي، والجميع مشغولون، والحضور النقيّ، وانبعاث، ونور العالم، والمسيح بين شقائق النعمان...

الموتُ، صِنْوُ الحياة، لهُ ترانيم وفصول وأطوار نضجٍ.

نحنُ اليومَ على مشارف الرّبيع، وغدًا سوفَ تزهرُ أشجارُ الليلك والكرز. وإذْ أعودُ لرؤيتك يا «غيزلان- Ghislaine»، بعد موتكِ بوقتٍ قصير (تبدو لي مفردةُ العودة هاهنا غير مناسبة، إذ لطالما سبقتني بخطوةٍ وتقدّمتني) في أواخر أيّام الصّقيع هذهِ وبدايات ظهور الأزهار البيضاء، فلكي أراك تضحكين ملء شدقيك تحت وابلٍ من الأمطار مثل شابّةٍ لعوب. أجل، أفتقدُ ضحكتكِ. وأعرف أنّ بوسع الإنسان أن يترك روحهُ تذوي داخل الاشتياق، أوّ يفتّش داخلهُ عمّا ينفث فيه أسباب الحياة. وبسبب ذلك، انهمكتُ خلال فصليْ الخريف والشتاء اللذيْن أعقبا موتك في استصلاحِ حديقة الحبر الصغيرةِ هذهِ من أجلك، حديقة لها بابان يدخلُ منهما المرءُ: بابُ الغناء وبابُ الحكايةِ. أما بابُ الغناء فلي، وأمّا الحكاية فلستُ سوى راويها. وها أنا ذا أهدي الحكاية إلى «غائيل-Gael» و«هيلين-Hélène» و«كليمونص - Clémence»؛ أطفالك وعصافيرُ جنّتك وحيواتك الثلاث المستمّرة من بعدك، وأدعوهم إلى المشي على أرضِ هذا الكتاب، لعلّهم يدركون كنه

ذاك النور المَشاع الذي خدمتِهِ دومًا بإخلاص.

وَقَالَ لَهُمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ لَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ: «لِنَجْتَزْ إِلَى الْعَبْرِ».

إنجيل مُرْقس، الإصحاح 4، الآية 35.

سحق حدثُ موتكِ كلّ شيء داخلي.

كلّ شيء باستثناء قلبي.

وقلبي أنتِ من شكّلهُ لي، بل وتواصلين تشكيلهُ في موتكِ، فتعجنينهُ بيديك، وتُهدِّئينه بصوتك وتنيرينهُ بضحكتك.

أحبّك، بتُّ عاجزًا عن كتابةِ جملةٍ غيرها، فهي الوحيدة التي تستحقُّ أن أكتبها. أنتِ من علّمني كيف أكتبها وأنطقها على النحو الأمثل، بقدر هائلٍ من البطء، فاصلاً كلّ حرفٍ عن البقيّة، ببطء قرونٍ عديدةٍ، بذلك البطء المحبّب الذي كان بطأكِ، بطء يميّزكِ حين ترغبين في أن تكوني عمليّةً أكثر؛ وأنت تحزمين الحقيبة، أو ترتّبين المنزل. أنتِ أبطأ امرأة عرفتها في حياتي، أبطأ من عرفتُ وأكثرهنّ سرعةً في الآن نفسهِ، فما أسرع ما مرّت سنواتُ عمركِ الأربع والأربعين كما لو أنّها وميضٌ بطيء ابتلعهُ الظلامُ دفعةً واحدة.

أحبّك. لا وجود لعبارة أكثر غموضا منها، ومع ذلك، هي الوحيدةُ التي تستحّقُ أن ينفق المرء قرونا في شرحها. فعند نطقها،

أعني عند تلفّظها كما ينبغي وبصمتٍ، تبذلُ كلّ ما فيها من عذوبة أمام سرّ موتكِ الذي لم يمض عليه سوى وقت قصير. إنّ حرف الكاف، وهو الحرفُ الأخير فيها، لا يكادُ يسمعُ حين يُنطَقُ، بل يبدو وكأنّه يضربُ بجناحيهِ ثمّ يطير.

أحبّك يا «غيزلان»، وليس من الوارد بالنسبة إليّ أن أصرّف هذه الكلمة في الزّمن الماضي المستمر [غير المكتمل]. لقد ذبلت الزهورُ على قبرك في مقبرة «سانت-أوندراس Saint–Ondras»، بمدينة «إيزار – Isère»، بعد أسبوعٍ من دفنك، بينما ظلّت جملة أحبّك حيّة، حتّى إن نطقها فقط قد يستغرقُ منّي زمنا يمتدُّ لكي يغطّي حياة إنسانٍ بأكملها، هكذا بكل بساطة.

في الثاني عشر من شهر أغسطس سنة 1995، في بلدةِ «كروزو»، أمسك الموتُ بك من شعرك. خِلتِ يومها أنك تعانين أوجاع صداع نصفيّ. تهيّأ لك أنك قلتِ شيئا بلا معنى ثمّ سقطتِ، بينما تتهاطلُ أمطارٌ من نجومٌ حمراء في كلّ مكانٍ داخل دماغك. قال الأطبّاء إنّك أصبتِ بتمزّق الأوعية الدمويّة. هو ذاك الاسمُ الذي يستخدمونهُ لكي يعبّروا عمّا لا يقدرون على قوله. هو ما نزفتهُ أجسادُ أحبابكِ من قوّةٍ لحظةَ موتك، لأنّ الأحياءُ يفقدون دمائهم أيضا حين يتوقّفُ سريان الدماء في عروق الموتى.

لم تُمنَحي الفرصة لكي تعيشي رفاهيّة المرض، والموتُ يهبطُ عليك دون سابق إنذارٍ كحال ذلك النسر الأسود في أغنية

باربرا[1]. لطالما أحببتِ تلك المغنّية، أحببتِ صوتها السّعيد، والحرّ، والعاشقُ وهي تغنّي: «ذات صباحٍ جميل، أو ربّما في الليل، نمتُ قربَ بحيرة، حينَ بدا أن شيئا مّا اخترق السّماء فجأة، قادما من العدم، ثمّ ظهر نسرٌ أسود». لقد ظهر الموتُ من العدم فجأة يا «غيزلان» وأسبل عليك جناحيه في لمح البصر.

كان جناحاهُ هائليْنِ للغايةِ حتّى غطّى ظلّهما كلّ من أحبّك لفترة طويلةٍ.

---

1 - "مونيكا أندريه سيرف" أو "باربرا" (9 يونيو 1930 - 24 نوفمبر 1997)، مغنية وممثلة وشاعرة فرنسية.

علينا أن نولد مرّتين لكي نحيا قليلاً، ولو لردح بسيطٍ من الزّمن. علينا أن نولدَ بالجسد أوّلاً ثمّ بالرّوح، كما لو أنّنا نُقتلعُ من شيء مّا. ترمي الولادةُ الأولى الجسدَ إلى العالم، بينما تقذفُ الثانية الرّوح إلى السّماء. بدأت ولادتي الثانية عندما رأيتك تدخلين غرفةً حوالي العاشرة، من ليلةِ جمعة، أواخر شهر أيلول سنة 1979. في تلك الليلة، التقيتكِ في منزل زوجك الأوّل. لقد وصلتِ إلى البيت حين كنتُ أتهيّأ لمغادرتهِ، وبدوتِ لي وكأنّك تعودين من حياتك التي استنزفتكِ. بعد ذلك، وقفتِ أمامي - لا أعرفُ كيف أشرحُ ذلك - حتّى النهاية؛ وهذه حقيقة ليس بإمكان موتك نفسِه تغييرها. ما حدث بيننا بعد ذلك كان بسيطًا كلعبة أطفال: لقد تبعتكِ، تبعتكِ في زواجك الأوّل، وطلاقك، ثمّ في زواجك الثاني. وعبرتُ مرّبعات لعبة الحجلة وثبًا، ثمّ واصلتُ سيري في إثرك.

وطوال ستّة عشر عاما، رافقتكِ في كلّ مكان، بيد أنّي وجدتُ الأمر مستحيلاً في الثاني عشر من أغسطس سنة 1995. لم أفهم لماذا استحال عليّ أن أرافقك يومها؛ لقد بدا لي الأمرُ وكأنّك تقفين

وراء لوح زجاجيّ أو غلالةٍ من هواء، وراء شيء مّا لا يكاد يتجاوزُ سمكه الميليمتر، شيء مّا مشكّل من الهواء والنور والزجاج. كلّ ما حدث هو أنّك انتقلتِ إلى الجانب الآخر، بيد أنيّ حين أحاولُ النظر إليك، لا أرى شيئًا، رغم مواظبتي على التدقيق. ولذلك أكتب هذه الأسطر لكي أتمكّن من التطلّع مطوّلاً في ذلك الميلمتر المشكل من الهواء والنور والزجاج، لعليّ أنجحُ في رؤيتك وأفهم ما حدث. ومع ذلك أعرفُ في قرارة نفسي أنيّ لن أتمكّن من عبور ذلك الميليمتر المشكل من الهواء والنور والزجاج، فحتّى إن اعتادت عيناي على الظلمة، أو خفتت حدّةُ ما في الموتِ من إبهارٍ، أو تمكنتُ في يومٍ مّا من الرؤية والفهم، أعرفُ أنّهُ سيتمنّعُ عليّ، رغم أنّك تمكنتِ من عبورهِ في لحظةٍ واحدة. صحيحٌ أنّ السّماء منحتكِ كلّ هباتها، وصحيح أيضا أني أكتب لكي أقول إنيّ قادرٌ على تمييز العبقريّ حين أراهُ، ولقد حدث أن قابلتُ واحدًا بالفعل في حياتي، ورافقتهُ طوال ستة عشر عامًا، ومع ذلك لم تكوني يوما كاتبة أو رسّامة أو فنّانة أو عالمة أو لستُ أدري ماذا. كلّ ما يمكنني قولهُ إنّك كنتِ ذلك العبقرّي في حالتهِ البكر، ذلك أنّ خامةَ العبقريّ معجونة من الحبّ والطفولة، ومن الحبّ مرّة أخرى. أودُّ أن يراك الناسُ على هذا النحو، مثلما كنتِ، كما أنتِ، أعجوبة مشكّلة من الطفولة والحبّ النقيّ، وامرأة تتمتّع بكلّ الهبات المتجمّعة داخل قلبٍ أحمر كما لو أنّهُ نار.

لا أفكرُّ في المسيح. ليس لأني نسيتهُ أو ابتعدتُ عنهُ. أنا لا أفكّرُ

فيه ببساطة. أنتِ من أدخله إلى حياتي، أو، لا أعرفُ كيف أصوغُ ذلك، أنتِ من جلبهُ إليّ، هذا إن لم يكن قد علقَ بيننا بالفعل، كما هو حالُ ذلك الشيء الذي يفلتُ، في أيّ قصة حبّ، من مزاجيْ الشريكين، ويظلُّ يضيءُ علاقتهما رغم كلّ ما يحيطُ بها من قتامٍ، شيءٌ يواظبُ على إظهار نفسه ويُلحُّ على ذلك، شيءٌ مّا أو شخص مّا، ولكن في هذه اللحظة تحديدًا، لا أفكرّ فيه، وأرفضُ أن أعطيه اسمًا. لن أفتح الإنجيل، ولن أعود إليهِ إلا إذا تطهّر من كلّ كلمات العزاء، واغتسل من كلّ ما هو خياليّ فيه. أعرفُ جيّدا أنّي لن أراكِ مجدّدا في هذا العالم، وأن ضحكتك ووقع أقدامك لن يسمعا فيه بعد الآن، ومع ذلك، أكتفي في اللحظة الرّاهنة بهذهِ المعرفة، فتلك العذوبةُ التي طالما جاءتني منكِ، ما تزالُ تأتي إليّ، بل ورفعت إلى ذرى أخرى، وهي تخرجُ من قبركِ المفتوح، هناك، حيثُ وقفتُ أنظرُ مطوّلاً إلى نعشك المصنوع من الخشب الرّقيق، وأتأمّلهُ مليّا وقد وضعَ فوق نعشين آخرينِ، تعفّن خشبهما مثل أسنانٍ سوداء داخل فمٍ نخرهُ السوس. بالنسبة إليّ، تلك المعاينة هي أثمنُ ما لديّ، ولهذا أبقيها بالقرب منّي، وأبحثُ عن نورٍ لا يخبو إلى جوارها. إنّي أبحثُ عنه عندما أكتبُ إليك، وكأنّك تركتِ لي عملاً يتعيّنُ عليّ إنهاؤه، عملاً هو الآخرُ هبة، وربّما هو أكثر الهبات نقاءً، ولهذا أشكرك يا «غيزلان». صحيحٌ أنّي خسرتُ كلّ شيء بفقدانك، ومع ذلك أشكرُ اشتياقي إليك. وها أنا ذا أعترفُ أنّي أحبّك مثل مجنون، وأبحثُ عن العذوبة والنور والحبّ في ذلك

الجنون، أمّا المسيح، فسأنظرُ في أمره حين يحينُ أوانُ ذلك.

أنتِ جميلةٌ. أجل، جمالك يشبهُ ما تسبغهُ أجواء الحرّية اللامتناهية على وجهِ امرأة. أنت جميلة، ومرحة، وعذبة، ومتنبّهة، ومشتتة، وغافلة، ومُرهَقة، وخفيفة، وعنيدة، وفاتنة، ومضطربة، وضاحكة، ويائسة، وشادية، وحالمة، ومضطربة مرّة أخرى وبطيئة، بل شديدة البطء، وحرّة، وجميلة مثل الحياة؛ ومن ثمّ سيتعيّنُ أن أُدمجَ نورَ موتكِ الأسود في جمالك الحيّ وكأنّه تفصيل إضافيّ، أو كذروة ما بلغهُ جمالك من فوضى وبركة، أجل، البركة.

أفكّرُ. أفكرُ كثيرًا، فأنا أقفُ أمام موتك وكأنيّ أمام أحجية، أو فكرة لا أقدرُ تماما على تبيّنِ كلّ ما فيها من رقّة ورعبٍ في الآن نفسه. ومن ثمّة أخمّنُ أنّ لا خيار أمامي، فلكي أضع يدي على الرقّة، يتعيّن عليّ أوّلاً أن أفتح ذراعيّ أمام الرّعب؛ لأنك لم تمنحيني شيئا آخر بخلاف النبل والنقاء، وبعد ذلك، أبحثُ عمّا أخفاهُ موتكِ عنّي من نبل ونقاء، وحالما أفرغُ من ذلك سأكتبُ كما علّمتني: سأبحثُ عمّا يستحقُّ الشكرِ في كلّ شيء، حتّى في الفجيعةِ.

الصّبيّة **(La gone)**. هكذا يُنادى عليك داخل العائلة. ومفردةُ الصبيّة يستخدمها أهالي مدينة «ليون – Lyon» للإشارةِ إلى باعثة البهجة، فريدةُ العشّ، آخر العنقود، رابعةُ الأبناء والأخيرةُ من بينهم. إنّ مكانة آخر الأبناء داخل العائلة هي مكانةُ السّادة. فالصبيّة يغفرُ لها كلّ شيء، نواظبُ على مراقبتها من بعيد لكن لا نتدخّل لردعها عن ارتكاب الحماقات، لأننا ندركُ أنّها آخرُ العنقود، وأننا لن ننجب بعدها قطّ، ومن ثمّة نحرق من أجلها كلّ ما تبقّى من أعمارنا، ونتصرّف وكأنّ حبنا لها لا ينضبُ، لأنّ تلك هي الحقيقةُ بالفعل. إننا نتعرّفُ على الأبناء البكر على نحوٍ متأخّر، من خلال مبالغتهم في إظهار سلوكهم الجادّ، وما يجدونهُ من صعوبةٍ في الحديث عن أنفسهم، لأنّهم تربّوا على خوفِ آبائهم الشبّان المبالغ فيه، وفزعهم من ارتكابهم للأخطاء، ومن ثمّ يجبرُ الأبناءُ البكرُ على حمل عبء عدم تخييب آمال آبائهم فيهم. ومع عبء كهذا، سيكونُ من المستحيل عليهم مجرّدُ التفكير في رفع أصواتهم بالغناء. وعندما يقدمُ الطفلُ الثاني إلى الدنيا، يُغمَرُ البكرُ بالشرّف، وأبواهُ يخاطبانه بصوتٍ لا يكادُ يسمعُ: «لقد حلّ أخوك

الصغير، أو أختك الصغيرة، بيننا، وسيكونُ عليك أن تتحلّى بروح المسؤوليّة»، بينما لا يطلبان الأمر نفسهُ من آخر الأبناء، يا إلهي، فريد العشّ ذاك، لأنّهما يعلمان يقينا أنّ قدومهُ إلى الدنيا يعدّ معجزةً في حدّ ذاته، لا سيّما وقد فهما، حين كبرا في السن، أنّ تربية الأطفالِ ليس بالمسألة المعقّدة كما كان يتصوّران، بل هي مسارٌ يتشكّلُ من أخطائنا.

ومن ثمّة تظلُّ الصبيّةُ عزيزةً في عيني أبويها، ومحاطةً بالحبّ، مهما كان عمرها، شهران أو عشرون عامًا أو أربعونَ، كما يغفرُ لها كلّ شيء؛ حماقاتها، وعشّاقها، وأزواجها، وبُطؤها وفوضاها. ولأن أبويها لا يطالبانها بشيء، تواظبُ الصبيّة على ردّ الجميل إليهما، وبأكثر الطرائقِ رقّة. أتخيّلك يا «غيزلان»، وأنت بعدُ طفلة تجلسُ على شرفةٍ منزل في «لا تور دو بين – La Tour-du-Pin»، أو تتعلّمُ المشي بصعوبة، حافية القدمين في حديقة «سانت-أوندراس»، بيد أنّك في تلك السنّ المبكرة، كنتِ قد فهمتِ العالم بالفعل، وأدركتِ أنّ الحبَّ هو ما ينقصهُ، رغم أنّه لا ينقصك، ومن ثمّة تحمّلت مسؤوليّة أن تكوني الصبيّة، وأخذت مكانك كآخر العنقود، وأعطيتِ الحبّ الذي أُعطيتِ، حتّى إنّك أرجعتِ ما أخذتِ أضعافا مضاعفة.

«مرحبا يا دبدوبتي». هذهِ العبارة هي ما اعتدتِ، طوال حياتك، أن تبدئي به محادثاتك الهاتفيّة مع أمّك بين الثامنة والثامنة والنصف، مساء كلّ يوم أحد. هي من كان يناديك على ذلك النحو. وبينما تحادثينها، تركضُ ابنتك الصغيرة، آخر العنقود، داخل الشقّة، مضاعفة من نشاطها مع اقتراب ساعةِ نومها. من ناحية، ثمّة طفلتك، ومن ناحية أخرى، ثمّة أمّك على الطرف الآخر من الخطّ، وبينهما، أنتِ، وقد صرتِ للحظةٍ واحدة أمّا لأمّك وأمّا لابنتك.

«مرحبًا يا دبدوبتي».

أنتِ لستِ بالمرأة الممتلئة، بل بوسعي أن أقول إنّ جسدك ضئيل نسبيّا، ومع ذلك ثمّة قوّة عطوف، وطيبة من الأعماق تخرجانِ منك، من حضورك وصوتك وعينيك. في الأوراق الرسميّة لديك ثلاثة أطفال، فتاتان وصبيّ؛ هم «كليمونص» و«هيلين» و«غائيل». بيد أنّك أنجبت في السرّ عشرات الأطفال. إنّ أعداد من ساعدتهم وطمأنتهم وواسيتهم وأطعمتهم وسهرتِ على راحتهم، أمرٌ يصعبُ على التصديق. ولهذا أكتبُ عنكِ أنتِ

تحديدًا، عندما أكتبُ عن الأمّهاتِ في كتبي. والحقّ أني ما كتبتُ إلاّ عنهنّ غالبًا. أقولُ إنّك أمّ مثاليّة وسأوضحُّ ذلك: إنّ الأمّ المثاليّة، كما هو الحالُ بالنسبة إليك، هي من تعطي حبّها بلا حساب، أو مقابل، وقبل أيّ شيء آخر، هي من تعيشُ من أجل أطفالها فحسب. صحيحٌ أنّها تعيشُ حياة أخرى أيضا، وتعيشُ أنواعا أخرى من الحبّ، ولكن حين يتعلّقُ الأمرُ بأطفالها، يكونُ حضورها كاملاً في كلّ إيماءة أو عبارة - كعبارة «مرحبا يا دبدوبتي» - [توجّهها إلى أطفالها]، ثمّ تنتقلُ على الفور إلى حياتها الأخرى. إن أردتُ أن أكون دقيقا أكثر، لقلتُ إنّ أفضل الأمّهات هنّ أسوأهنّ في أعين النّاس لأنّهن لا يفكّرن سوى في أطفالهنّ، وإن أردتُ تقديم تفصيل إضافي، لقلتُ إنّ أفضل الأمّهات هنّ من لا ينسين أيضا أن يكن نساء وحبيبات وبنات، محافظات في الآن نفسه على حضورهن الكامل في حياة أحبابهنّ. لا أعرفُ كيف أجعل أمرًا بسيطا كهذا مفهوما للجميع أو أشرحَ لهم ما يبدو بديهيا، أعني تعريف «أفضل الأمهات»، ومع ذلك، بوسع جملةٍ واحدة أن تقول ذلك، جملةٌ تناسبُ كلّ ما عشته طوال حياتك، وحدث موتك أيضا، جملة تقول إنّ أفضل الأمّهات هنّ اللائي يبذلن أنفسهنّ للآخرين ثمّ يرحلن.

كان النظرُ إليك يكفيني لكي أتحدّث عن الأمهات، والجنيات، والحبيبات، والبُنيّات، والساحرات. أمّا الآن، فسيتعيّنُ عليّ أن أواجه الأشياء، وأنظر إليها مباشرة، دونَ أن أعبر من خلال نور

وجودك في الدنيا، لأنّ موتكِ شكّل لحظةَ فطامي.

أعودُ إلى موضوعِ الهاتف مرّة أخرى. اتصل بي هذا الصباح شخص ما وطفق يحدّثني عن قراءاتهِ. لم أتبيّن جيّدا ما يقولهُ واكتفيت بالإنصات إليهِ، مسايرًا إيّاه. فجأة، قلتُ لنفسي إنّه يتعيّنُ عليّ قطعُ هذه المحادثة القصيرة، خوفا من أن تتصّلي بي، كما هي عادتك دومًا، حين تهاتفينني في أيّ وقتٍ لتسأليني عن أيّ شيء، قبل أن تفاجَئي بأنّ الخطّ مشغول، ولذلك سارعتُ بإنهاء المكالمة، بيد أنّ الأمر استغرق منّي بضع ثوانٍ لكي أدرك أنّك متِّ وأنّك لن تتصلي بي ثانيةً.

يقالُ إنّ أقرب ما في الجسد إلى الروّح، هما الصوتُ والعينان. لا أدري إن كان ذلك صحيحًا أو نابعا عن حقيقة مّا، بيد أنّي أعرفُ أنّ الموتَ جشعٌ ويتصرّفُ بطريقة مباغتة، كحال لصّ وضع يدهُ على كنز؛ ففي أقل من ثانية تفرغُ العينان من نورهما وينطفئ الصوت، وينتهي كلّ شيء، ينتهي، ينتهي، ينتهي.

أعدت التقاط سماعة الهاتف وتعرّفتُ على صوتكِ في اللحظةِ نفسها. بوسعي أن أقول، أو يتعيّن علي أن أقول إنّي تعرّفتُ على صوتك عن طريق اللمسِ، حتّى قبل أن أدرك ذلك، إذ لطالما تحدّث إليّ صوتك، حتّى قبل أن أسمع الكلمات التي يحملها، وأخبرني بأشياء ثمينة ونادرة، وغير مهمّة في الآن نفسه. كان يقولُ لي إنّ الحياة ستستمرّ من بعدي ولن تنتهي مطلقًا تماما مثل

ضحكتك، وصوتك؛ هذا الصوتُ الذي لطالما استطعتُ تمييزهُ في حياتك أو في صمتك الأبديّ.

لم أنتبه أوّل الأمر إلى ما يحدثُ معي، إذ حدث أن رأيتك عدّة مرّات خلال الأسبوع. سيكونُ عليّ أن أكون دقيقا أكثر وأقول إنّي أراك طوال الوقت، حتّى امتلأت بك عزلتي داخل الشقّة وانجذبت إلى أملٍ في لقاء قريب معك. لقد تحدّثنا عن كلّ شيء كما اتّفق، تحدّثنا عن المال، والله، والأطفال، والكتب، ولحافٍ معروض للبيع في موسم التخفيضات، كنت تفكرّين في أن نذهب معا إلى المنطقة الصناعيّة «مونتسو لي مين Montceau-les-Mines» من أجل اقتنائه. أما المتاجر حيثُ اعتدتُ مرافقتك إليها، فتبدو لي ساحرة اليوم، وتستنفرُ أحلامي أكثرّ حتّى ممّا تفعلهُ البلدان المُوغلة في البعد. ومع ذلك، لم أنتبه إلى ما يحدثُ معي. كنت تتمتعين بموهبة تحويل الكلام إلى احتفالٍ، حتّى إنّي اعتقدتُ أن ذلك الكلام، العابثِ والضاحك، لن يتوقّف قطّ، غير أنّي نسيتُ في غمرة ذلك ما نشرهُ الموتُ من أوراق فوق حياتينا، اسودّت بغتةً وأثقلت عليّ. بيد أنّي حين انتبهتُ، اكتشفتُ أنيّ فقدتُ الشخص الوحيد الذي كان بإمكاني مسارتهُ بخصوص ما يزعجني أو يسحرني من أمور. لقد فقدتُ من كان يمنحُ كلمات الحياة اليوميّة عذوبةَ سترة ملقاة بإهمال فوق الكتفين، أو عذوبةَ أمسيات الصيف، حينَ تعجزُ الأشجارُ الكبيرة عن منح أيّ شيء آخر بخلاف البرد والظلام.

أنت تعرفين هذه الغرفة، حيثُ أكتب، فلطالما دخلت إليها لكي تطّلعي على مُسوّداتي، ولطالما أحببتُ أن أريك ما لا يُرى: ما هو مهملُ في الكتابة، والحال التي يكونُ عليها عند تشكّلهِ. كنتُ أكتبُ من أجلك أنت فحسب، كنتُ أكتبُ من خلالك، موجّها الورقة البيضاء نحو وجهك لالتقاط أكبر قدر ممكنٍ من النور. أنت تعرفين هذه الغرفة، مثلما تعرفين هذا المكتب جيّدًا، وكما تعلمين، ثمّة جدارٌ من الكتبِ على يمين مكتبي، كتب تحملُ أسماء، بعضها لكتّاب عظامٍ ومهيبين. وحدثُ موتك يعيدني إلى ما في حياتي من بؤسٍ فطريّ، بؤس يشتركُ فيه الناس ويجدونه مفيدًا، قلتُ لنفسي اليوم إنّ أولئك الكتّاب، حتّى أكثرهم صرامةً وتحرّرا، هم أيْضًا، عانوا من هذا البؤس، سواء أكانوا يعلمون ذلك أم لا، ولكن ذلك لا يهمّ، فحتّى أكثر الكتّاب كبرياء ومعرفة اكتفوا باتباع هذه الغريزة الصبيانيّة الساذجة: الكتابةُ لإصلاح ما لا يمكنُ إصلاحهُ.

أتحدّثُ إليكِ بصوتِ هامسٍ، أتحدّثُ إليك بصوتٍ عالٍ، أستعيرُ أصواتَ أناس من القرن الثاني عشر لأتحدّث إليك،

أستعيرُ مفردات الأزهار والورود البريّة، وروائح الحبّ الهادئ المهذّب، وكلمات المغنين الجوّالين وهم يمدحون بركات امرأة لم تكن يوما لهم، امرأة هي زوجةُ أمير، أجل، فأنت اليوم زوجة ملك النور، وبين ذراعي الله العظيم تنامين، بيد أنّ ذلك لا يمنعني من الحديث إليكِ، ومغازلتكِ، ولا يمكنُ لأيّ شيء أو أحد، أميرًا كان أو حتى الربّ، أن يحرمني من ذلك ما حييتُ، فمن خلال الحديثِ إليك، أمنحُ كلامي الفرصة لكي تكونَ رقيقةً، وصاخبةً كفاية ولكن بالقدر الذي لا يجعلها باهتةً قطّ داخل ثرثرتنا. لقد اعتقدتُ أوّل الأمر أنّي فقدتُ صوتي، فالكلامُ والموتُ يشبهانِ شخصين يريدانِ دخول غرفةٍ في الوقت نفسهِ، ومن ثمّة يعيقانِ بعضهما، ويظلاّن محجوزين عند العتبة. أوّل الأمر، تعاظمَ حضور الموت في حياتي أكثر فأكثر، بينما تلعثمَ الكلامُ على لساني أكثر فأكثر، ثمّ أدركتُ أنّ عليّ أن أتفادى كلّ ما قيل من عبارات مكررة حول التعامل مع الألم وضرورة أن يستأنف المرءُ حياته بصورة طبيعيّة، كما يتفادى الواحدُ منّا مرض الطاعون. لقد فهمتُ أنّ المرء عليه ألا ينصت إلى أيّ أحد حين يتعلّقُ الأمر بالموت، وبالحياة كذلك، وأن يتحدّث عن الموتِ كما يتحدّث عن الحبّ، بصوتٍ هامسٍ، بصوتٍ عالٍ، وأن يختار الكلمات المتقشّفة فقط، كلماتٌ تترجمُ فرادة ذلك الموت وعذوبة ذلك الحبّ.

أتذكّرُ...

طريقتك في الكلام حينَ تُشدّدين على جملك أو تخفّفين بالأحرى من وقعها على آذان مستمعيك بحركة من رسغك، حركة تبدو معها يدك وكأنها تقومُ برقصة خفيفة، طريقتك الكارثيّة في إعداد طعام العشاء، أو بالأحرى، تكليف زوجك بهذه المهمّة، وعندما تعجزين عن إيجاد حلّ آخر، تقومين بصنع الفطائر، كميّات هائلة من عجينة الفطائر التي تضطرّ عائلتك إلى التهامها طوال أيّام الأسبوع، طريقتك في الاستماع إلى محطة إذاعة فرنسا الثقافية، كلّ يوم على الساعة السابعة مساءً، وتدوينُ أسماء الكتب التي يعرضونها فوق ورقة صغيرة، سرعان ما تضيعينها في اليوم التالي، طريقتك في كتابة الرسائل إلى أولئك الذين يشاركونك المنزل نفسه، طريقتك في الضحك ملء شدقيك عندما يغرقُ محدّثوك في همومهم ومآسيهم، طريقتك في الغضب والشتم دون أن تفقدي شيئا من بركاتك، طريقتك في تسويد الكراريس باقتباسات تنقلينها من الكتب، حتّى إني اعتقدتُ هذا الصباح أنّ تلك الكراريس ماهي إلاّ صورة أمينة عنك، وعن حركة روحك

نحو كلّ ما هو نبيل ونقيّ، طريقتك في المحافظة على حياتك زوجيّة، وترك باب منزلك مفتوحا في الآن نفسه؛ حيث بإمكان أيّ شخصٍ أن يزورك وفي أيّ وقت، وعندما يزيدُ الأمرُ عن حدّه، تكتفين بتنهيدة قصيرة، وذلك كلّ ما تفعلينه، طريقتك في اشتهاء أمرٍ بعينه حتّى ولو كان مجانبا للمنطق، طريقتك في وضع صور أطفالك داخل الألبوم العائلي، لكنك سرعان ما تنسين أن ترتبيها، وتتشاغلين بالنظر إليها مبتسمة، وقد علا ملامحك شيء من الذهول، طريقتك في التألّم حين يحثّك أحدهم على القيام بأمر مّا، أو يقول لك هيّا سنتأخّر، إذ تعانين كما الأطفال، حين نخرجهم من المنزل ونجبرهم على ترك ألعابهم، أو حين نذكّرهم بما أضاعوه من وقت، طريقتك في الغناء حين تشعرين باليأس لأنّ كلامك لم يفهم، طريقتك في وضع نفسك على ذمّة الآخرين، دون أن تكوني ملكا لأحد، طريقتك الحرّة في أن تكوني حرّة، وطريقتك العاشقة في أن تكوني عاشقة، أوه يا «غيزلان»، كم يبدو تابوتك ضيّقا على احتواء أمورٍ كثيرة كتلك. أحيانا يخيّل إلي أنّك لم تموتي حقّا وأنّك ابتكرتِ مقلبا مّا، كالأطفال؛ ألسنا نقولُ عن مقالبِ طفل مشاكس: «ما الذي ابتكرهُ هذه المرّة؟». وحتّى إن اعتقدتُ في موتك بوصفه حقيقة لا تقبلُ الدحض، أعلمُ أنّك تُحْدثين الآن فوضى جميلة داخل الجنّة، فهناك، أتخيّلك تنعمين برفقة ملاك يجهّزُ لك العشاء، وآخرُ يقرأ لك الكتب بينما تصدحُ موسيقى «موتسارت - Mozart» من المذياع كلّ مساء على الساعة السابعة.

لم يحدث قطّ أن تقبّلتُ أيّ انتقادٍ يوجّه إليك. أسمعُ كلّ كلمة مؤذية تقالُ عنك، وكلّ تحفّظ بخصوصك، لكنّي لا أنسى ذلك، بل أحتفظُ بهِ داخل صدري. صحيحٌ أنّي لا أواجههم بما يتقوّلونه، ولكنّه يظلُّ محفورًا هناك، مثل هاوية تفصلُ بيني وبين كلّ من شكك فيك في أحد الأيام، حتّى لمرّة واحدة. تلك هي طريقتي في إظهار حبّي، بل هي الطريقةُ الوحيدةُ التي أعرفها. أقولُ هذا ليس لأنّك مثاليّة أو قديسة، فحتّى القديسات، وخصوصا هنّ، ينتقدن أنفسهنّ، ويفعلن ذلك بوضوح، بل إنّهن يفعلن ذلك دوما استنادًا إلى قانون روحيّ أساسيّ يقولُ إنّ المرء كلّما اقترب أكثر من الضوء كلّما أدرك أنّ الظلال تملأ روحهُ. ليس ثمّة قديسات، وذلك ما يقلنهُ هنّ عن أنفسهنّ. ثمّة ظلامٌ وثمّة أحيانًا جنيّة تبتكرُ مصدر ضوءٍ داخل الظلام. وما أنتِ إلاّ نصف جنيّة، ونصف مصدر ضوءٍ، ولذلك لم أر منك سوى الخير. سأكونُ دقيقا أكثر وأقول بانبهار لا أخفيه: حتّى عندما يأتيني شرٌّ منك، فإنّهُ سرعان ما يتحوّلُ إلى خير. لقد جعلتني أفهم لماذا يجبُ أن نخرس صوت هذيان الغيرة العظيم؛ إذ لا توجد عاطفة واحدة تماثلُ الحبّ أو تناقضهُ، حتى لو زاحمتهُ في القوّة. فالغيورُ يعتقدُ أن دموعهُ وتأوّهاتهُ تشهدُ بعظمة حبّه، بينما كلّ ما يفعلهُ هو الكشفُ عن شعور مبتذلٍ يحملهُ كلّ إنسان، وهو الأنانيّة. في الغيرة، ليس هناك ثلاثة أشخاص، أو حتّى شخصين، بل ثمّة شخص واحد صار فريسةً لطنينِ جنونهِ، طنين يجعلهُ يقولُ لشريكهِ: أنت مدين لي بكلّ

شيء لأنّي أحبّك، ولأنّي أحبّك ارتبطتُ بك، وبسبب ذلك أنت ملزم بتبعيّتي لك، لأنّك مرتبطٌ بتبعيّتي لك، ومن ثمّة يتعيّنُ عليك أن تلبّي كلّ رغباتي، وطالما أنّك غير قادر على تلبيتها كلّها، فذلك يعني أنك عاجزٌ من الأساس عن تلبيتها، ولذلك ألومك على ما فعلته وما لم تفعله أيضا، لأنّي مرتبط بك، وأرفضُ الاستمرار في تبعيّتي لك، وأريدك أن تتفاعل مع تلك التبعيّة، الخ. إنّ خطاب الغيرة لا ينضبُ قطّ، فهو يتغذّى على نفسه، ولا يحفّزُ أيّ تفاعلٍ، بل إنّهُ لا يحتملُ أيّ تفاعلٍ لطبيعتهِ الشبيهة بالخذروف أو الدوّامة أو الجحيم. ولقد اختبرتُ ذلك الشعور طوال خمسة عشر يوما، لكنّ ساعة واحدة كانت كافية لكي أعرف كلّ شيء بخصوصهِ. صحيحٌ أنّ ذلك الجحيم اختفى نهائيا بحلول اليوم الخامس عشر، لكنّي كنتُ قد تخبّطتُ في غضون تلك الفترة داخل أبديّة تذمّري المريعة، بعد أن حصل لدّي انطباعٌ بأنّ لديك استعدادًا للزواج بكلّ رجال العالم ما عداي أنا. ومن ثمّة راح الطفلُ داخلي يضرب الأرض بقدميهِ ويعظّمُ من شأن ألمه لابتزازك. ثمّ عاينتُ كيف كنت لا تنصتين إلى أمور كتلك، وأدركتُ أنّك محقّة، محقّة تماما في عدم الانصات، فلا أحد ينصتُ إلى خطاب متذمّرٍ، لا أثر للحبّ فيه؛ خطاب هو عبارة عن ضجيج محضٍ وتذكير غاضبٍ يدورُ حول مفردة واحدة إلى ما لا نهاية: أنا، أنا، أنا.... وفي ختام ذينك الأسبوعين، شعرتُ بأنّ حجابا مّا تمزّق دفعةً واحدة. أكادُ أسمّي ما حدث لحظة كشفٍ، بل هي كذلك فعلاً. فعلى نحو مفاجئ، لم

أعد أكترثُ إن أنت تزوّجت رجال العالم كلّهم. وفي ذلك اليوم، فقدتُ شيئا وربحتُ شيئا آخر. أعرفُ جيّدًا ما فقدتهُ، أمّا ما ربحتهُ فلا أقدرُ أن أسميّه. كلّ ما أعرفهُ هو أنّه لا ينضب.

لقد استغرق الطفل الغاضب داخلي خمسة عشر يوما لكي يموت. صحيح أنها تبدو فترة قصيرة، لكن بوسعي أن أرى الأمر بوضوحٍ؛ فبالنسبة إلى الآخرين، قد يظلُّ ذلك الطفل متحكّما في مصائرهم لفترة طويلة دون أن يصيبهُ الوهنُ. ولكن في ما يخصّني، عجّلت ضحكاتك أمام ما أبديه من تذمّر بموت الطفل الغاضب؛ ومن ثمّة نفذ ما في ضحكاتك من عبقّرية إلى قلب الطفل الملك، وفتح ما في حريّتك من نقاءِ كلّ المسارات أمامي بغتةً. فالطفولةُ الحقيقية، تلك التي تشبه حبّا رحّالا، مرحا، لا يحفلُ بالألقاب أو الانتماءات، ليس في مقدورها أن تظهرَ إلاّ في حالةٍ وحيدة؛ وهي موتُ الطفل الملك.

إن أنا حاولتُ صياغةَ ما أحبّهُ فيك، على نحوٍ هادئ وبسيط، لقلتُ إنّي أحبُّ حرّيتك، أعني ما بلغهُ قلبك من ذرى صرت معها أنت أيضا غير قادرة على توقّع تصرّفاتك، أعني أيضا، ما بلغهُ قلبك من ذرى صارت معها رغباتنا المتخيّلة بخصوصك محض هراء، وأعني أخيرًا، حبّك وذكاءك، فالحبّ الحقيقي، والذكاء الماديّ والحرّية المكرّسة في الواقع، هي ما يمنحنا بالنهايةِ قلبا واحدًا، خافقا ومحلّقا.

إنّ ما أفلت منّي في موتك هو ما أفلت منّي بالنّهاية طوالَ حياتك. فالموتُ لا يحوّلُ حياةً مّا إلى مصير، وأن نموت لا يعني أن كتاب حيواتنا أغلقَ مع الصفحة الأخيرة، فحيواتنا تظلُّ بالنهاية نصوصًا يستحيلُ فكّ رموزها. وإلى اليوم، مازلتُ غير قادر على ألاّ أتخيّلكِ جامحةً، هاربةً، بينما يفرُّ قلبك داخل النور.

لطالما عرفتُ أني غير قادرٍ على فهم رموزكِ، حتّى في أكثر لحظاتِ قربنا وضوحًا. وتلك المعرفةُ هي ما جعلني أحبّك.

ورغم أنّك أمّ، وسبق لك الزواجُ مرّتين، بل وكنت عالقة داخل آلاف الروابط الاجتماعية، لم يحدث قطّ أن عرفتُ إنسانا أكثر تحرّرا منك، أعني أكثرَ تحرّرا وذكاء وعشقًا. صحيحٌ أنّ الأمر يتعلّقُ ههنا بثلاث كلماتٍ بيد أنّها كلمة واحدة في واقعِ الأمر، ذلك أنّ فصل كلّ كلمة عن الأخرى، يفرغُ كلّ واحدة منها من الإحساس والمعنى ومن كلّ شيء.

لم أتوّقع قطّ حدث موتك، إذ تبلّغتُ به من مصادر مختلفة، على دفعاتٍ، وبالتدريج. ورغم أنّي رحتُ أقنعُ نفسي في كلّ مرّة بأنّي سمعتُ وعرفتُ وأدركتُ ما حلّ بك، إلا أنّ العكس هو ما يحصلُ دوما، ومن ثمّة يذهبُ في ظنّي أنّك لم تموتي بل سافرتِ إلى الخارج، دون أن تتركي وراءك عنوانًا . ولقد واظبتِ على الكتابةِ إليّ، صحيح أنّه لا يوجدُ حبرٌ أو أوراقٌ في الـ «هناك»، بيد أنّك استخدمت كلّ ما يقعُ تحت يديك لكتابة رسائلك: روائح زهور السرنجة والبنفسج، زهورك المفضّلة، أو حركة الأضواء، أو كما حدث اليوم، حين شاهدتُ صورة ممشى تحيطُ به الأشجارُ من كلّ جانبٍ على شاشة التليفزيون. لا أعرفُ لماذا وضعَتْني صورة باهتة كتلك أمام حدث موتك، فالأشجار فيها لم تكن حقيقيّة، بل عبارة عن نقاطٍ ملوّنة تعرضها الشاشة، ومع ذلك، أدركتُ على الفور أننا لن نتنزّه معا مرّة أخرى، وأنّ ضوضاء ضحكتك طلّقت صفير الرّيح بين أوراق شجيرات الأكاسيا إلى الأبد. وعلى ذلك النحوُ، كنتُ أتعلّمُ كلّ يوم كيف أتقبّل فكرة موتك، ثمّ أنسى كلّ ما تعلّمتهُ بعد ذلك. لأننا، نحنُ الأحياء، نصيرُ تلاميذ خائبين أمام الموت، تمرُّ علينا الأيام والأسابيعُ والشهورُ، ومع ذلك نواظبُ

لم أتوّقع قطّ حدث موتك، إذ تبلّغتُ به من مصادر مختلفة، على دفعاتٍ، وبالتدريج. ورغم أنّي رحتُ أقنعُ نفسي في كلّ مرّة بأنّي سمعتُ وعرفتُ وأدركتُ ما حلّ بك، إلا أنّ العكس هو ما يحصلُ دوما، ومن ثمّة يذهبُ في ظنّي أنّك لم تموتي بل سافرتِ إلى الخارج، دون أن تتركي وراءك عنوانًا . ولقد واظبتِ على الكتابةِ إليّ، صحيح أنّه لا يوجدُ حبرٌ أو أوراقٌ في الـ «هناك»، بيد أنّك استخدمت كلّ ما يقعُ تحت يديك لكتابة رسائلك: روائح زهور السرنجة والبنفسج، زهورك المفضّلة، أو حركة الأضواء، أو كما حدث اليوم، حين شاهدتُ صورة ممشى تحيطُ به الأشجارُ من كلّ جانبٍ على شاشة التليفزيون. لا أعرفُ لماذا وضعَتْني صورة باهتة كتلك أمام حدث موتك، فالأشجار فيها لم تكن حقيقيّة، بل عبارة عن نقاطٍ ملوّنة تعرضها الشاشة، ومع ذلك، أدركتُ على الفور أننا لن نتنزّه معا مرّة أخرى، وأنّ ضوضاء ضحكتك طلّقت صفير الرّيح بين أوراق شجيرات الأكاسيا إلى الأبد. وعلى ذلك النحوُ، كنتُ أتعلّمُ كلّ يوم كيف أتقبّل فكرة موتك، ثمّ أنسى كلّ ما تعلّمتهُ بعد ذلك. لأننا، نحنُ الأحياء، نصيرُ تلاميذ خائبين أمام الموت، تمرُّ علينا الأيام والأسابيعُ والشهورُ، ومع ذلك نواظبُ

على قراءة الدرس نفسهِ فوق السبورة السوداء.

كنت تملكين الشيء القليل من متاع الدنيا، وكلّ ما خلّفتهِ كإرثٍ تقريبا، هما دموعك وضحكاتك. لن أتحدّث ههنا عن دموعك، بل عن ضحكاتك؛ فهي ترقصُ داخل حلق «كليمونص»، طفلتك الصغيرة ابنة الأربعة أعوامٍ، تلك الشيطانة المرحة والسّاحرة، أو يُسمعُ دوّيها داخل السيارة حين أكون برفقة «هيلين»، ابنتك الكبرى، ذات الخمسة عشر ربيعا. أنت تعرفين كيف يكونُ المرء منّا في تلك السنّ، وكيف يمضي سريعا إلى كلّ ما هو جوهريّ في الأمور، فذات رحلةٍ، أخبرتني «هيلين» أنّها تجدُ رخامات القبورِ بائسة، ومبتذلة، ثمّ حدّثتني عن أمنيتها في أن تضع النقش التالي على قبرك: «إلى أمّي التي تثيرُ حفيظتي غالبا»، وحالما أخبرتني بذلك، انفجرنا ضحكا، أنا وهي. لقد كان من المستحيل بالطبع تحقيقُ أمنيتها، فالمسؤول عن صنع رخامات القبور سيرفضُ إنجاز الطلبيّة، وحتّى لو وافق، سيشعرُ النّاسُ بالرّعب حين يقرأون أمرًا مماثلاً، ومع ذلك، كنتُ أعرفُ أنّ جملة محبّة كتلك ستدخلُ السرور إلى قلبك، فنحنُ لا نحتاجُ دومًا إلى كلمات حبّ لنعبّر عن حبّنا، أو إلى الجدّية، وخصوصا الجدّية، بل كلّ ما نحتاجهُ هو الثّقلُ والخفّة، الدموع والضحك.

ذات مرّة، كنتُ أتمشّى مع «كليمونص» داخل منتزه الحديقة الزجاجيّة، حيثُ يوجدُ كشك هاتف يقعُ قريبا من مدينة

الألعاب. كنتُ أهاتفك منه أحيانا، أيّام الأربعاء، حينَ أدركُ أنّي و«كليمونص» سنتأخّرُ في العودةِ إلى المنزل. أقول لك إننا لن نعود إلى المنزل في الوقت المحدّد، ومع ذلك سنعودُ سالمين، معفّرينِ بضحكاتنا، ثمّ أطلبُ منك ألاّ تقلقي. بعد أسبوعٍ على وفاتك، أشارت «كليمونص» إلى ذلك الكشك وسألتني: «ما رأيك لو اتصلنا بها؟» فأدخلتها إلى المقصورة الزجاجيّة وأجلستها فوق الحافة المعدنيّة حيثُ يوضعُ دليل الهاتف عادة، ورأيتها ترفعُ السّماعة وتضغطُ فوق كلّ أزرار الهاتف، ثمّ تصمتُ لبضع دقائق، وتتظاهر بالإنصات، ومن حين إلى آخر، تقطعُ صمتها قائلة: «أجل، أجل». وحالما فرغت ممّا تفعلهُ، سألتها قائلاً: «ماذا قالت لك؟»، فأجابتني: «لقد سألتني إن كان كلّ شيء على ما يرام، وإن كنّا مازلنا متماسكين بوصفنا عائلة، فأجبتها أنْ نعم، وأنّي سأواصلُ ارتكاب الحماقات مع صديقي ذلك الأبله الضخم». بعد ذلك، غادرنا المقصورة وعدنا إلى ما كنّا فيه من ضحكٍ ولعبٍ.

ثمّة ألف طريقة للحديث إلى الموتى، ولكنّ تصرفا ساذجا من طفلة في عمر الرّابعة والنصف، هو كلّ ما تطلبّهُ الأمرُ لكي أدرك أنّنا لا نحتاجُ إلى الحديث معهم بقدر ما نحتاجُ إلى أن نسمعهم وهم يقولون لنا جملةً واحدة يكرّرونها دومًا: «عيشوا حياتكم أكثر، عيشوها دومًا، عيشوها أكثر فأكثر، وخصوصًا، لا تؤذوا أنفسكم أو تفقدوا ضحكاتكم».

لو كان في جرابي كلمتان فقط أصفك بهما، لفضّلتُ أن تكونا هاتين: «ممزّقة» و«مشرقة». ولو كان كلّ ما لدّي هو كلمة واحدة، لاحتفظتُ بكلمة «مُحبّة»، لأنّها تحتوي على الأخريين. فأنتِ ترتدينها على نحوٍ يخلبُ اللبَّ، كحالك حين تلفّين تلك الأوشحة الحريريّة الزرقاء حول عنقك، أو كحالك حين تشرقُ عيناك ضحكًا بسبب تعرّضك للأذى.

في داخلك، ثمّة فكرة منسابة، عميقة وجادّة، فكرة منتشرة في حياتك وإيماءاتك ولحظات صمتك وضحكك. وإلى آخر يومٍ في عمرك، بقي سؤال وحيد يسيطرُ عليك، سؤال لطالما بحثت عن إجابة عنه. ففي يوم السبت الثاني عشر من شهر أغسطس، وعلى الساعة الواحدة ظهرًا، كنت ترقدين داخل غرفة إنعاش مستشفى «هوتيل ديوه دو كروز – Hotel-Dieu du Creusot»، وكانوا يتهيؤون لنقلك إلى منطقة «ديجون – Dijon» داخل حوّامةٍ. لم يبق أمامك سوى ساعات قليلة في هذه الحياة، ولعلّ مفردة حياة تبدو غير مناسبة لوصف تلك الساعات الأخيرة. بدا وجهك هادئا وأنت تغمضين عينيك، وكأنّك بلغتِ ذروة حلمك، وتتهيّئين لحلّ

معادلةٍ قديمة جدًا. لا أعرفُ إن كنت قد وجدتِ حلّ اللغز. فما أعرفهُ أنّك لم تتوقّفي طوال حياتك عن البحث عن إجابة لذلك السؤال، سؤال تبدو أمامهُ بقيّة الأسئلة ثانويّة: «ما هو الحبُّ؟». ولطالما أبديت عدم رضاك عن أيّ إجابةٍ لشدّة نبلك. حتّى حينَ تقومين بصياغةِ إجابة مّا عن ذلك السؤال، تكونُ إجابتك استفهامًا. قبل قليلٍ، أعدتُ قراءة بطاقة هي عبارة عن مجسّمٍ لقبلة رودان[2]، كنتِ قد أرسلتها إليّ. على ظهر البطاقة كتبتِ هذه الجملة، وههنا يجبُ أن أشير إلى أنك من وضع خطًّا تحت آخر كلمتين فيها وليس أنا: «لكم وددتُ لو كان كلّ ما في الحياة بأسرها على صورة هذه القبلة العظيمة، أعني أجمل ما فيها كالطبيعة والأطفال والفسحات، وأصعبَ ما فيها أيضا، كالعمل والعلاقات الاجتماعية، حتّى ما ينشبُ بين العشّاق من خلافٍ يجبُ أن يكون على صورةِ هذه القبلة. ألسنا نفوز بأرواحنا حقّا حين تحتضنُ هذهِ القبلة ما في الحياةِ من امتلاءٍ وافتقارٍ أبدي؟».

2 - أوغست رودان (1840-1917). مَثَّال فرنسي شهير، من أهم أعماله "مجسم القُبلة" الذي يمثل في الظاهر لحظة عاطفية حميمية، بيد أنه في الأصل تجسيد لصورة المحبين الملعونين في جحيم "دانتي" في رائعته "الكوميديا الإلهية".

عندما كنت في الحادية عشرة من عمرك مات أبوكِ، لكنّك لم تتخلّي عن صورتهِ قط. كانت صورة بالأبيض والأسود، ذات حجم كبير، رافقتك دوما إلى كلّ المنازل التي عشتِ فيها. أمّك هي من أشرفَ على تربيتك. وهكذا هو دأبُ الأمهات فهنّ الوحيدات اللائي يكرّسن كامل وقتهنّ لأفراد العائلة. في سنواتِ الطفل الأولى، يسجّلُ الآباءُ حضورهم لمامًا، وكأنّهم ظلالٌ شحيحةُ الكلام. وعندما يدخلون حياة الطفلِ أخيرًا، وقد بلغ الخامسة أو السادسة من عمره، تكونُ مهمّة التنشئة قد أنجزت بالفعل. ومن ثمّ كلّ ما يفعلونهُ هو جلبُ غبار الخارجِ، حيثُ عاشوا كلّ تلك الفترة، ومعهُ صرامةُ المبادئ، ونصائحهم بضرورة الاستعداد لمواجهة وحشيّة الحياة داخل المجتمع. لقد ربّتك أمّك، ولكن لم تفعل ذلك وحدها، إذ ساعدتها «ماري كلود – Marie Claude»، أختك الكبرى. فبعد مولدك، أخبرتها أمّك أنّها تخشى أن تكون أيامها في هذه الدنيا معدودة، ومن ثمّة حمّلتها مسؤوليّة السهر على تربيتك، كما لو كانت أمّا سرّية صغيرة السنّ، أو أمّا ما تزالُ بعدُ طفلة.

وعندما تكبرين، ستجدين نفسك محاطةً دومًا بملائكة

حارسين، مثل أمك وأختك، بل يحدثُ أحيانا أن تذهبي للبحث عنهم داخل الكتب، على سبيل المثال، حين تفتقدين حضورهم. إنّ ما يحدثُ داخل العائلات يبدوُ لي طريفًا بحقّ. فالعائلات تسعى إلى الخلود، وهو ما تنجحُ فيه على نحوٍ مّا: فنظرتهم للأطفال لا تتغيّرُ قطّ سواء حين يأتون إلى الدنيا أو حين يكبرون. وهذه النظرةُ تلتقطُ منذ البدايةِ وتظلُّ ثابتة في الزّمن. ومن ثمّة، يفشلونَ في رؤية، أو تخيّل ما يعبرُ قلب طفلة مراهقةٍ من ظلالٍ، وهي تميلُ بأدبٍ على كتابٍ ألّفتهُ كاتبة شابّة، تكادُ تقاربها سنًا، اسمها «إميلي برونتي – Emily Brontë»، مؤلّفة «مرتفعات ويذرنغ»[3].

غالبا ما حدّثِتني عن ذلك الكتاب، وعن قراءتك السرّية لهُ يوم أشرقَ عامك السادس عشرة. نادرة هي الكتبُ التيّ تغيّرُ حيواتنا، وعندما تفعلُ ذلك، تفعلهُ إلى الأبد، إذ تفتحُ أمامنا أبوابًا لم نكن ندرك أنّها موجودة من الأساس، نعبرُ من خلالها، ولا نعود أدراجنا مطلقا. لقد متِّ في الرابعة والأربعين من عمرك، وهذه سنٌّ مبكرّة، ولكن حتّى لو عشتِ ألف سنة، لكررتُ القول نفسهُ: أنت تحملين الشباب داخلك ولأجلك. إنّ الحياة هي ما أسمّيه شبابا، حياةٌ مطلقة، يختلطُ اليأسُ فيها بالحبّ والابتهاج. اليأس والحبّ والابتهاج. من غُرست في قلبهِ تلك الزهراتُ الثلاث،

3 - هي الرواية الوحيدة للشاعرة والروائية البريطانية "إميلي برونتي" (1818-1848)، صدرت سنة 1847؛ وهي تعد من كلاسيكيات الأدب العالمي.

امتلك الشباب لنفسهِ، وعاشهُ من الدآخل، وجاورهُ أيضا. لطالما نظرتُ إلى شخصّيتك من خلال تلك الزهور الثلاث المخفيّة تحت سطحِ عذوبتك الحقيقية. وبلا شكّ، أنت حملت الحبّ داخلك مذ لحظة ولادتك، تماما كالابتهاج، شقيقه الصغير. أمّا اليأس، فلا أشكّ أنّه حلَّ مع إشراقة عامك السادس عشرة، يومَ حدستِ ألاّ مجيب لنداء الحبّ، وأنّ الحبَّ يماثلُ ما وصفتهُ «إميلي برونتي» في كتابها: مجنون يذرعُ الجبال وينام بين الأحراش، أو كلمة بلا صدى تمزّقها الرّياح، كلمة لا يعرف الرّجالُ كيف يستجيبونَ لندائها. ومع ذلك، يجبُ ألاّ نطنب في لومهم؛ فمن ذا القادرُ على تلبية نداء رياحٍ تصفّرُ بين الأحراش؟

مؤخّرا، أمضيتُ أسبوعًا في المدينة الوحشّية الكبيرة. عندما كنّا نذهبُ إلى «باريس» معا، كانت تبدو لي مدينة عصّية على المقارنة. كلّ شيء معك يبدو لي عصيّا على المقارنة. في باريس، تتبدّى لنا المدينةُ مقسّمة؛ ففي جزء منها نتسوّق من المحلاّت التجارية الكبرى، وفي جزء آخر نزور معارض الرّسم. لطالما مزجتِ بين الأشياء، لأنّ الحبّ في نظركِ يتبدّى في أيّ مكان، سواء تعلّق الأمرُ بقسم الأحذية داخل أحد المتاجر أو أمام لوحة تّفاحة رسمها «سيزان – Cézanne». لقد قدتني... لا... يتعينّ عليّ أن أستخدم الزمن المضارع الخالصِ، المضارع وحدهُ... يتعيّنُ علي أن أستخدمَ ما في المضارع وحدهُ من ماضٍ تامّ، ومن ثمّة أقول، لقد كنت تقودينني داخل تفاصيل حياتك اليوميّة، إلى أن بلغتُ تلك النقطة حيثُ يفتتحُ كلّ من الحبّ الأبديّ والحياةُ اليومية حفلة الرّقص، وقد ارتمى كلّ منهما في حضن الآخر.

أتذكر تلك الأمسية الباريسية. ذهبنا معا لكي نشاهد «فيلمًا قديمًا»، هو فيلم «الكلمة» للمخرج «كارل درايرِ – Carl Dreyer». وعبارةُ «فليم قديم» لها وقعٌ غريب في أذنيّ، فمع أنّي لا

أتحدّث ههنا عن كتابٍ قديم، إلاّ أنّ ذلك الفيلم كما لو أنّه كتاب قديم بالفعل. يبدأ الفيلم بمشهدٍ افتتاحيّ لحشائش عالية وغسيل يجفّ على حبلٍ، غسيلٍ هو عبارة عن أقمشة بيضاء تجلدها ريح سوداء. القصّة نفسها تتكرّرُ دوما، قصّةُ رياحٍ تعوي فوق المرتفعات، غير أنّ ما يتغيّرُ مع ذلك الفيلم، هو وجودُ شخص يعرفُ كيف يلبّي نداءها، وينجحُ في إقامة محادثة مع تلك الربّة العاصفة والمتجهّمة. وذلك الشخصُ كان رجلا أبله، يجرُّ قدميه داخل منزلٍ شهدَ موت امرأة بعد وضع مولودها، تتبعهُ طفلةٍ صغيرة هي أصغرُ أطفال المتوفّاة، كانت الوحيدة التي شاركتهُ حزنه. ورغم أنّ الحزن كاد يذهبُ بعقل ذلك الأبله، إلا أنّه كان مقتنعا بإمكانيّة بعث الأرواح والأجساد من الموت، بل ومقتنع ببعث الأجساد على وجهِ الدقّة، وأبدى استعداده للإيمان بما لا يصدّقهُ عقل، أمام اعتراض الكاهنِ الواقفَ هناك، ولم يشدّ أزرهُ في ذلك سوى شريكتهِ البريئة، تلك الطفلة الصغيرة. وها هو الأبلهُ يقتربُ من التابوت المفتوح، تحت ضغط الطفلة، ومدفوعا برغبته في الاستجابة لطلبها، يخاطبُ المرأة الميّتة قائلاً بصوتٍ كاد أن يكون صراخًا: «هيّا، هذا يكفي، عليك أن تنهضي الآن وتعودي إلى ذويك، فأمامك عمل لم تنهه بعدُ». فجأة تتحرّكُ يدا المرأة المعقودتان فوق صدرها ببطء. كانت يداها أوّل ما تحرّكَ فيها، قبل أن يشرق وجهها بابتسامةٍ، وتغمرُ الحياةُ جسدها. تمتلئُ الشاشةُ بوجه تلك المرأة التي أنهكها الموتُ، وغمرتها مياههُ، قبل

أن تخرج منها، وتستعيدَ حياتها، بصوتٍ لا تكادُ تُتبيّنُ كلماته، إذ لم تكن قادرة سوى على تكرار كلمة واحدة بتلعثمٍ: «الحياة، الحياة، الحياة».

لقد بكيتِ عندما شاهدتِ ذلك الفيلم. وبعدها بمدّة، اقتنيتُ لك شريط ذلك الفيلم. إنّه ما يزالُ هناك في بيتك. ولكم وددتُ مشاهدتهُ ثانية، بيد أني لم أقدر على ذلك. لقد أردُت أن أنظر مباشرة في وجه ما لا طاقة لي على احتماله، وهو انتظارُ عودتك. أعرفُ أنّ لا طاقة لي على احتمال ذلك، لأنّ ما أنتظرهُ هو المستحيلُ وما آملهُ هو المستحيلُ، أن أسمعك تقولين: الحياةُ، الحياةُ، الحياةُ.

لقد أنجزت بطلةُ الفيلم المهمّة نفسها التي أنجزتها، أجل، المهمّة نفسها: لقد أعادت وصل الآخرين بعضهم ببعض. لقد أنصتت إليهم، وسهرت على راحتهم، وواستهم ووفّقت بينهم وهدأتهم. وعلى نحوٍ مّا، حافظتْ على تماسكِ حياةٍ أسريّة منذورة أساسا للتفكّك. أنت مثلها تماما؛ إذ لم يسبق لكِ أن شتمتِ أحدًا قطّ، حتّى أولئك الذين آذوك، وخصوصا هم. كما لم يسبق لكِ أن خذلتِ أحدًا قطّ، وغالبا ما كنتِ تسارعين إلى التخفّف من أحزانك وهمومك. ولو سلّمتُ بوجهة نظر أهالي المقاطعة، لقلتُ إن حياتك مليئة بالقصص. بيد أنّ وجهة النظر هذه تبدو لي سقيمة وبائسة، لأنّ الأمر أبسط بكثير ممّا يعتقدون؛ فحياتك تخلو من القصص. حتّى قصص حبّك لم تحتفظي منها سوى بالحبّ.

والحقّ أني أدينُ لك باكتشاف عظيم ومعرفة ثمينة: الحبُّ لا يرابطُ في مكانٍ واحدٍ قطّ. وإذا ما سئلتُ: كيف يعقلُ أن يحدث ذلك؟ سأجيبُ: ليس للحبّ مكانٌ في هذا العالم. ولكي يحظى بذلك المكان، سيتعيّنُ عليه أن يكون على صورتك أنتِ فحسب: بلا معنى، ومربك، ومبهمٌ، ومجنون، وحيّ، حيّ، حيّ.

كان يمكنُ أن تموتي مثل بطلة الفيلم وأنت تضعين مولودًا. والحقّ أنّك خفتِ حدوث ذلك مرّتين، حين أنجبت «هيلين» ثمّ «كليمونص». لطالما فكّرتُ في أنّ شيئا مّا بداخلك يدفعك إلى حافّة الموتِ بصدقٍ، وبكلّ ما في قلبك المجنونِ من نقاءٍ لا غبار عليهِ. وتلك الفكرةُ هي الأمرُ الوحيد الذي لم أكاشفك به ولم أجرؤ على إخبارك بهِ قطّ. وها أنا أكتبها اليوم، فرغم أنّها لا تفسّرُ لي شيئًا، ولا تفرضُ نفسها عليّ كحال أفكاري الأخرى، إلاّ أنّها تعلنُ عن حضورها، مثل ضبابٍ ينتشرُ فوق الأرض التي أفرغت من ضحكتكِ.

أبتسمُ كلّما فكّرتُ في أماكن نزهاتنا. غالبا ما كنّا نذهبُ إلى أماكن عاديّة تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، كغابة «سان-سرنان Saint-Sernin»، أو منتزه الحديقة الزجاجيّة، أو ذلك المسلك القريب من منطقة «أوشون – Uchon». كنتِ تأخذينني إليها حين تتحرّرين من عملك بوزارة التربية الوطنية. عندما تصلين، تكونُ تنهّداتك قد سبقتك. لطالما كنتِ متعبة وعاجزة عن توفير شيء من الوقت لنفسك. وسيرافقكُ ذلك التّعبُ إلى النهايةِ، وستعانين من ندرة الوقت. أتعبك الرباط الزوجيّ والأطفال والوظيفةُ. يقالُ غالبا إنّ أفضل ما نفعلهُ في هذه الحياة هو ألاّ نفعل شيئًا، غير أنّك لم تتمتّعي سوى بالنزر اليسير من تلك الرفاهيّة الحقيقية؛ أعني ألا تفعلي شيئا. عندما تصلين تقولين لي: «كريستيان»، لنذهب إلى غابة «سانت-سرنان»، فأمامي خمس دقائق فقط»، ثمّ تسيرين فوق الممشى المستقيم بخطوات عصبية ومستعجلة؛ وهو ما يجعلني ألهثُ وأنا أحاولُ اللحاق بك. كنتِ تسرقين القوة من الطبيعة، والدقائق من الوقتِ النادر، وقتٌ تخصّصينه لعملك في وزارة التربية الوطنية ولأطفالك الذين يلتهمون كلّ ما بداخلك

من حبّ. كانت ابنتك البكر قد كبرت، وعمليّا لم يبق أمامك سوى تربيةُ طفل واحد، «كليمونص» الصغيرة، آخر العنقود، صاحبة الوجه المستدير والعينين الجادتين، بيد أنّ ذلك لم يكن مهمّا في نظرك، لأنّك امرأة مفرطةُ المشاعر، ومن ثمّة، فإنّ ما يحدثهُ طفلٌ واحدٌ من دوّي داخل قلبك يعادلُ دوّي ألف طفلٍ. لقد شاهدتنا أشجارُ «سانت- سيرنان»، تلك الأشجارُ الضخمة، الكسولة والمنشغلة بامتصاص زرقة السّماء، نعبرُ قربها متعجّلينِ، أكثر من مرّة. غالبا ما تقولين لي، لديّ خمس دقائق فقط يا «كريستيان»، عليّ أنْ أغادر لأعود بالبنت الصغيرة من المدرسة، أو عليّ أن أصحّح حزمة من الأوراق، أو أشتري الزيت والمعجنات، أو أكتب رسالة... يجبُ أن أكون ما نطلبُ دومًا من الآخرين أن يكونوه: امرأة ليست مثالية فحسب بل يجب أن تكون خفيفة داخل مثاليتها، وليست خفيفة فحسب بل يجب أن يكون وقتها متاحا للآخرين، وليست متاحة فحسب، بل يجب أن تكون عطرة وأنيقة، امرأة تمضي مساءاتها تلعبُ دور سندريلاً وتنفقُ كامل صباحاتها في سؤال نفسها عن الخدعة التي تمكنها من تحويل ثمرة اليقطين إلى عربة تجرّها الخيول، وخمس دقائق من المشي إلى خمسة قرونٍ من السعادة. هيّا، حُثّ خطاك يا «كريستيان»، وألق تلك السيجارة من يدك فهي تمنعك من التمتّع بالهواء النقيّ. حسنا، سنصلُ إلى شجرة الصنوبر تلك ثمّ نعود أدراجنا. هل تبدو لك المسافةُ قصيرة جدّا؟

لا، لم تكن قصيرة قطّ، ولا حتّى تلك الدقائقُ الخمس. لقد كانت مثالية يا «غيزلان»، ويستحيلُ أن يكونَ الأمرُ غير ذلك، لأنّك كنتِ سعيدةً لحظتها ونحنُ نمشيها معًا.

أتطلّعُ إلى أطفالك، «كليمونص» و«هيلين» و«غائيل». مضت أشهر قليلة على وفاتك، لكنّهم مازالوا يتدرّبون على تقبّل فكرة غيابك. أكادُ لا أصدّقُ ما يستغرقهُ الموتُ منّا من وقتٍ لكي نقتنع به كحقيقةٍ. أكادُ لا أصدّقُ صلابة جماجمنا وتمنّعها أمامهُ. صحيحٌ أنّ أعمار أطفالكِ متفاوتة، وأنّهم يقيمون في أماكن مختلفة، بيد أنّي أواظبُ على متابعتهم وهم يبتكرون لأنفسهم، كلّ على طريقته، مساراتٍ تساعدهم على تقبّل فكرة غيابك، مسارات قد يذهبُ ظنّ البعضِ منّا إلى أنّها غير موجودةٍ من الأساس.

لا بدّ أنّ وظيفتك كأمّ لم تكن يوما بالوظيفة الهيّنة. فجميع الأمّهات يصعبُ التعامل معهنّ، سواء حين يسرفن في حبّهنّ أو حينَ يُقتّرن في مشاعرهنّ. وبخصوص هذهِ الحقيقة، لا توجدُ منطقة وسطى. لقد منحتِ كلّ شيء لأطفالك، حتّى إنّك قدّمت لهم ما يحتاجونه من أسلحة لكي يقاوموا ما في حبّك من جنون، ويحظوا بتلك المساحةِ داخل قلوبهم، وهي مساحة ضروريّة، يمنعُ على أيّ أحدٍ دخولها، وخصوصا أنتِ، أمّهم. ولعلّ آخر كتابٍ قد تكوني قرأتِهِ هو تأمّلات «فرانسواز ليفيفر – Françoise Lefèvre»

حول مرض التوحّد، والمدرسة، وفرص الحياة المجهضة، وما يميّزُ المؤسسات وموظفيها من غباء شديد. إننا نميّزُ الحمقى من افتقارهم للحبّ، افتقارٌ يحرمهم من الرؤية والانصات. لقد قلت للمؤلّفة إنّ جملة في الكتاب أسعدتك، ووجدتِ أنّها مفيدة خصوصا للأمهات؛ جملة تقول: «أنا أحبّكم وأحاربكم في الآن نفسه». في بعض الأحيان، كان باستطاعةِ أطفالك أن يلقوا على مسامعك الجملة نفسها، ويقولون لك: «نحن نحبّك ونحاربك في الآن نفسه». أعرفُ أنّ الرّاحة لم تعرف طريقها إلى حياتك الأسريّة، ومع ذلك أعرفُ أمرًا آخر: في الموتِ، سنحظى بكلّ الوقتِ لكي نرتاح.

يوم الجمعة، الحادي عشر من أغسطس سنة 1995، حملتكِ رحلتك الأخيرة إلى «سانت-أندوراس» الواقعة في بلدة «كروزو». في تلك الرحلة، رافقتك «كليمونص» الجالسة على المقعد الخلفيّ للسيارة. رحتِ تقودين بسرعة جنونية، ولا شيء يشغلُ بالك سوى الوصولُ قبل مغادرة الطفلين الآخرين إلى «ليون». عندما تريدين الحصول على شيء، مهما كلّفك الأمر، تصيرين فظيعة ورائعة في الآن نفسه. والحقّ أنّك نادرًا ما فشلتِ في تحقيق ما تصبين إليه. وبالفعل، وصلتِ في الوقت المناسب، ثمّ وقفتِ داخل فناء المنزل محاطة بثلاثتهم، «كليمونص» و«هيلين» و«غائيل»، وهم يمازحونك ويتبادلون النكات بخصوصك. لقد تمكنتِ من رؤيتهم بينما شرع الموتُ، القابع في الظلّ، في توجيهِ

منجله نحوك، ورحتِ تبادلين أحبّ ثلاثة مخلوقاتٍ إلى قلبك الضحكات، حتّى اللحظة الأخيرة في حياتكِ... تقريبًا.

في الأيّام التي أعقبت حدث وفاتك، كان النظرُ إلى صورك أمرًا لا يطاق. واليوم، بوسعي القول إنّي لم أعد أبالي بالنظر إليها. التقطت صورك الأخيرة، وقد كنتُ أظهرُ فيها إلى جانبك، أربعة أيام قبل موتك. ومع ذلك، ها أنا ذا أتطلّعُ إليها بلا عاطفة، لأني لا أحتاجُ أدلة أو آثارا أو علامات تذكرّني بك. لم يحدث أن كنتِ ملكا لي قطّ، أو ملكا لأيّ شخصٍ آخر. لقد مَنحتِ حبّك كاملاً لكلّ من التقيتِ بهم، ومع ذلك، لم يمنعك حبّك ذاك من ممارسة حرّيتك التي تخطفُ الألباب. ليس ثمّة صورة لحرّيتك، بل يستحيلُ أن تلتقط لها أيّ صورة، ولذلك لا أراكِ في الصور، فأنت موجودةٌ في مذاق تلك الحياة التي أتشوّفُ عيشها، وفي ملامح أولئك الذين التقيهم، وهم أحرارٌ، وفي كلمات الشعراءِ، كـ «أنطونان أرتو – Antonin Artaud»، كلماتٌ ما إن أعيدُ قراءاتها حتى أراك ماثلةً أمامي، حقيقيّة أكثرَ ممّا أنت عليهِ في ذلك البؤسِ الذي تعكسهُ الصور. يقولُ «أرتو»: «ليس في مقدورنا أنّ نحبّ أي شخصٍ دون أن نميل غريزيًا إلى الاحتفاظ بهِ داخل قلوبنا، بينما يُفترَض بنا أن نمنحَ قلوبنا إلى من نحبّ دون أن نفكرّ في

استعادتها. ولكن، هل باستطاعة المرء أن يمنحَ قلبهُ إلى الأبد؟».

أنت تعرفين جواب ذلك السؤال، ولست وحدك من يعرفُ ذلك، فكلّ النّاس تعرفُ الإجابة. وهذه هي الإجابة، أن نحافظ على ما في ذلك السؤّال من حيرةٍ طوال حياتنا. الإجابة هي ألاّ نجيب من الأساس، بل نبقى داخل ذلك السؤال الرّاقص والمبتهجِ، سؤال هو على صورتك أنتِ يا «غيزلان».

وها أنا ذا أكتبُ الآن مسترشدًا بعبارة «أنطونان أرتو»، أكتبُ لأجعلك مرئيّة. لا أشعرُ بالقلق حيالك. ولا يعنيني أن تكونَ حياتكِ مجرّد شرارة داخل العدمِ، أو دليلاً على وجود حياةٍ أخرى؛ ففي الحالتين، سواء آمنا بالعدم أو بوجود الله، أعرفُ أنّ مهمّتك على هذهِ الأرض انتهت في الثاني عشر من أغسطس سنة 1995. لم تتخلّي على أحدٍ، بل هرعت ببساطة إلى ذلك الموت، كعادتك حين تذهبين إلى مكانٍ مّا. كلّ ما فعلتهِ هو الاندفاعُ مباشرةً إلى الجوهر على نحوٍ عنيفٍ. ومع ذلك، كلّ ما كان يصدرُ عن وجهك الشبيهِ برسومات فناني عصر النهضة، هو تلك العذوبةُ الكبيرة. وأنا ههنا لا أكذب، إذ لطالما بقيت عذوبتك على حالتها الخامّ، عذوبة ليست باللطيفة أو الخاضعة. إنّ الحياة عنيفة، وكذلك الحبّ والعذوبة. وربّما ما يفسّر تفاجؤنا الدائم بها في الموت من عنفٍ، هو أننا اخترنا أن نحشرَ حيواتنا داخل مناطق معتدلة، فاترة وتكادُ تكونُ مزّيفة.

أنتِ امرأة محبوبة ومعشوقة وسعيدة ومدّللة، ومع ذلك، لم تحظي بحياةٍ سهلة. ليس ثمّة من يحظى بحياة سهلة؛ إذ إنّ مجرّدُ الإقرارُ بكوننا أحياء يحيلنا على الفورِ إلى ما في حيواتنا من صعابٍ. فمنذ لحظة الولادة، لحظة احتراق الرّوحِ في وهجِ النّفس، يصيرُ كلّ ما ننسجهُ من روابط صعابًا متينةً تمزّقُ نياط القلب. الحياةُ ليس أمرًا يخضعُ إلى المنطق، ومن ثمّة ليس في مقدور الإنسان، إلا إذا أراد أن يكذب على نفسه، أن يعرضها أمام عينيه، وكأنّها لحظاتُ طمأنينة أو رسم هندسيّ. وبالمثل، لا يمكنُ التنبؤ بأطوارها أو تنظيمها، فهي تهوي علينا بغتةً، كما سيفعلُ الموتُ لاحقًا، وتخضعنا إلى أهوائها، أهواءٌ تسلمنا رأسا إلى التمزّقِ والتناقضات. وههنا تكمنُ عبقريّتكِ؛ لقد أجدتِ التعامل مع تناقضاتك، مرّة واحدة وإلى الأبد، فلم تبدّدي قواكِ في اختصار ما يستعصي على الاختصار، بل مضيتِ قدما في حياتك شاعرةً بالتمزّق، مجاورةً لهُ، ومتكئة عليه. تكمنُ عبقريّتك، كذلك، في تعاملكِ مع الحبّ دون وسيط، تعاملينهُ بندّيّة، وليذهبُ ما تبقّى إلى الجحيم. بالمناسبة، هل ثمّة ما تبقّى؟

بمرور الوقتِ، ينتهي الأمرُ بالكثير من النّاس إلى الاستسلام. يختبؤون بعيدًا عن واقعهم المعيش، قانعينَ بكلّ ما هو مقدور عليه. يقولون لك: «إنّها الحياة. هكذا تجري الأمور. ثمّة أمور مستحيلة سيكونُ من الأفضل لو توقفنا عن الحديث عنها أو التفكير فيها، لأنّها، ببساطة، مستحيلة». أمّا أنتِ فلم تستسلمي

قطّ. لطالما ضممتِ صبرك بقوّة إلى حضنِ عذوبتك. يأسك من الحبِّ كان بالنسبة إليك دافعا لكي تحبّي ثانيةً. ذلك ما يقولُه كلّ شيء فيك، عيناك وصوتك وحياتك بأسرها، فأنت لم تكوني مُشَكَّلة إلا من الحبّ، ولا شيء آخر، حتى إنّي أتساءلُ عمّا أخذهُ الموتُ منك حقّا، لأني أعلمُ أنّه عاجزٌ عن وضعِ يدهِ على خامتك تحديدًا.

نحنُ أناسٌ نقرأ بسرعة كبيرة ودون أن نفهم ما نقرأهُ، كحال هذه الجملة الشهيرة لـ «تيريز أفيلا – Thérèse d'Avila»، إذ وردت فيها كلمة مهمّة، أهملها كافّة القرّاء تقريبا، هي كلمة «مثل»؛ تقولُ الجملة: «الحبُّ قويّ **مثل** الموت»، وتلك الكلمة تحديدًا هي كلّ ما آمنتِ به أنتِ.

في العام الماضي، سيطرت عليك فكرةُ تعليم «كليمونص» القراءة. كانت في الثالثة من عمرها، لكنها أبدت شغفًا بالكتب، حتّى إنّها كانت تختارُ الأسفار الضخمة حين تأخذينها إلى المكتبة البلدية. ذات يوم قدمتُ إلى منزلك، ووجدتُ الكلمات منتشرة في كلّ مكانٍ، كلماتٌ كتبت على مرّتين. كلّ كلمة كتبت بأحرف استهلاليّة كبيرة أولّ الأمر، ثمّ أعيدت كتابتها تحت الكلمة الأولى بأحرفٍ صغيرة. وهكذا عاينتُ فوق باب غرفة الاستقبال، ورقة كرتونية بيضاء كبيرة، كتب فوقها «**باب غرفة الاستقبال**»، بأحرف غليظة، وتحتها، كتبت العبارة نفسها بأحرفٍ قصيرة. والأمرُ نفسهُ عاينتهُ فوق باب الثلاجة، وأبواب الغرف، والكراسي، وأثاث المنزل. ولقد فاقم ذلك من الفوضى الموجودة في المنزل، وهي فوضى كنت تعرفين كيف ترفعينها إلى مرتبةِ الكمال. لقد أردتِ أن تتعلّم ابنتك القراءة، ومن ثمّة ابتكرتِ حلاً بسيطا: لقد حوّلت المنزل بأسرهِ إلى كتابٍ مصوّر. أحيانا، تشاركك «كليمونص» اللعبَ داخل مجرّة الكلمات تلك، وفي أحيان أخرى تُبدي عدم اهتمامها بذلك، وتمضي إلى ألعاب وأمور أخرى، حينئذٍ، لا تلحّين عليها. فمهما كانت رغبتك في تعليمها قويّة، لا تتركينها تعميك

عن الجوهريّ: كلّ ما يهمّ هو سعادة الأطفال، سواء كان مصدرها حرف أبجديّة نازل من السّماء أو حماقات يرتكبونها داخل الغرف بعيدًا عن الأعين.

في الممرّ المؤديّ إلى المطبخِ، قمتِ بتثبيت رزمانةٍ تضمُّ نماذج من لوحات «ليونادرو دافينشي – Leonardo de Vinci»، على بعد سِتّين سنتيمترًا من الأرض، وحين أبديتُ اندهاشي من تثبيتها على ذلك العلوّ الخفيض، شرحتِ لي الأمر قائلةً إنّ ذلك العلوّ يلائمُ عيني الطفلة، لا سيّما أنّها تمرُّ من أمام الرزنامةِ أكثر من مرّة في اليوم، وأضفتِ أننا نتعلّم من معاينة الجمال بقدر ما نتعلّم من الأمور الأخرى، بل إننا نتعلّم من الجمالُ ما يفوقُ ما نتعلّمهُ من البقيّة. كنتُ أدركُ أنّ ذلك ما يهمّك بدرجة أولى. والحقّ أني لم أرَ دليلاً رائعًا على ذكائك أكثر من فكرة تعليق الرزمانة على ذلك العلوّ. وبالتأكيد، الذكاءُ هو أن نقدّم للآخر أثمن ما لدينا، ونبذل ما في وسعنا لوضعهِ في متناول أيديهم، إن هم رغبوا في الحصول عليه، في أيّ وقتٍ. الذكاءُ هو أن نمنح الحبّ ومعه الحريّة. هل ترين ما أرى؟ ثمّة معطى وحيد لا يتغيّر، وهذا المعطى هو أنتِ، أينما كنتِ، سواء على ارتفاع ستين سنتيمترًا من الأرض، أو في قلب سماء الخريف الحمراء.

أراكِ تعبرين قطعة أرضٍ بمساحة فدّانٍ، صغيرة ومنحدرة قليلاً، كانت تفصلُ، أو بالأحرى تصلُ منزليْ أمّك وأختك، في منطقة «سانت- أوندراس». ثمّة شجرة تنوّب عملاقة، حيثُ ترتفعُ الأرض بالقرب من المنزل الأوّل، شجرة تبدو للرائي باهتة وعجفاء، كحال صبيان العائلات وقد غدوا في طور المراهقة، نراهم يلعبون بالكُجّات[4] في سنّ الثانية عشرة، ولكن ما إن نعود إليهم بعد ثلاث سنوات، حتّى نجدهم وقد صاروا عمالقة خُرقا ومنطوين على أنفسهم. أمّا في الجهة المنخفضة من الأرض، فثمّة شجرة ليمون تقفُ أمام المنزل الثاني، أقلّ طولاً من الشجرة الأولى، وأكثر امتلاءً، تبدو واثقة من نفسها، وكأنّها أحد نبلاء المنطقة. في أشهر الصيفِ، كانت شجرة الليمون تستمتعُ بنثر أوراقها فوق قماش الطاولةِ المشمّعِ الموضوع تحتها. لا أعرفُ كيف تبلّغت الشجرتانُ بخبر موتك. لا شكّ أنّهما عاينتا وجود الكثير

4 - أو البلي: وهي عبارة عن كريات صغيرة تكون في الغالب زجاجية يلعب بها الأطفال. يقول "ابن منظور": "الكُجّةُ، بالضَّمّ وَالتَّشْدِيدِ: لُعْبَةٌ لِلصِّبْيَانِ: قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: هُوَ أن يأخذ الصَّبِيُّ خِرْقَةً، فَيُدَوِّرَهَا وَيَجْعَلَهَا كَأَنَّهَا كُرَةٌ ثُمَّ يَتَقَامَرُونَ بِهَا. وكَجَّ الصَّبِيُّ: لَعِبَ بِالكُجَّةِ (...) وتسمى هذه اللعبة في الحضر باسمين: الخِرَقةُ ويقال لها التُّونُ، والأَجُرَّةُ ويقال لها البُكْسَة" (ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، (مج 13)، دار صادر، بيروت، ط 3، 2004، ص: 29).

من النّاس، على غير العادة، في ذلك الأربعاء 16 أغسطس 1995، أي يوم جنازتك، واستمعنا باندهاشٍ إلى ضوضائهم المرتفعة قليلاً. كنتِ تحبّين «سانت- أوندراس»، فلطالما ذهبت إلى هناك لنيل نصيب من الراحة، والقراءة ورؤية الأصدقاء، مثلما أحببتِ تينك الشجرتين، المراهقَة والنبيلة، وممّا لا شكَّ فيهِ، أنّهما جمعتا النزر اليسير من ضحكاتك، ما كان يكفي لتخليص مواسم الصيف القادمة من ذلك المظهر الجنائزيّ الذي لا يناسبك أو يناسبهما أو يناسبُ أيّ إنسانٍ على الإطلاق.

ها أنا ذا أعودُ إلى المسيح. بيد أنّي أجدُ مفردة العودة غير مناسبة، فحدثُ العودةُ لا يمضي إلى الوراء، بل يتحرّكُ إلى الأمام، دومًا إلى الأمام. سأقولُ إذن إنّي أمضي إلى مقولة السيّد المسيح المتوحشّة: «دع الموتى يدفنون الموتى». أحبُّ هذه المقولة، وأوافقُ على كلّ ما ورد فيها، فبالنهاية، أنا أتحدّثُ ههنا عن امرأة حيّة، عن امرأة تعبرُ أرضا بمساحة فدّانٍ، صغيرة ومنحدرة قليلاً، تفصلُ أو بالأحرى تصلُ غابة الوقتِ المظلم بمَرْجِ الأبديّة.

أنصتُ إلى ترنيمة القدّاس الجنائزيّ (Requiem) لـ «غابريال فوري – .Fauré G». الحقّ إنيّ أستمعُ إليها داخل رأسي بعد أن فقدتُ الأسطوانة. بحثتُ عنها ولم أجدها. لديّ الكثيرُ من الأسطوانات في المنزل، والكثيرُ من الكتب، والكثيرُ من كلّ شيء، ومع ذلك أنصتُ إلى تلك الموسيقى العذبة كالماء، داخل رأسي، موسيقى هي عبارة عن قدّاس جنائزيّ غير أنّ الموت فيها يتحدّثُ عن الحياةِ فحسب، ما يدفعُ المرء إلى الاعتقاد بعدم وجود الموتِ من الأساس، وأنّ الحياةَ بتموّجاتها وأثوابها المتعددة هي كلّ ما يوجدُ. لا أحبُّ الاستماع إلى موسيقات القداس الجنائزي الأخرى؛ فقدّاساتُ «موتسارت» و«فيردي – Verdi» تحتفي بالموتِ بصخبٍ عنيفٍ، وتدخلُ موكبَ الظلام الباردِ إلى القلب. أنا أحبُّ تلك الموسيقى التي لم أعد أحتاجُ إلى الاستماع إليها، موسيقى تبدو مثل يدٍ من نور تداعبُ وجهك المنطفئ، أو مثل إحساس عذبٍ ينفق المرء وقتهُ في تعقّبه. لقد كنتِ عضوا في فرقة غنائية لمدّة عشر سنوات، وكان يفترض بك هذا العام أن تنشدي، رفقة أعضائها، قدّاس «فوري»؛ لكنّك لن تنشديه معهم. لستُ

بحاجة إلى تلك الأسطوانة، ولا أشعرُ بأنّي أفتقدها. فهذا الصباحُ تساءلتُ عمّا أحتاجهُ حقّا. ربّما كان الصمتُ ما أحتاجهُ، صمتٌ يشبهُ حبّات رمالٍ تعزف فوقها كلّ الكلمات والموسيقات، صمتٌ أسعى إلى امتلاكه من خلال الكتابة. في اليوم التالي لحدث موتكِ، ظننت أني سأهجر الكتابة إلى غير رجعة. غالبًا ما يجعلنا الموت نُفكّر على ذلك النحو، فهو يحملنا على التصرّفِ بصبيانيّة. ثمّة شيء صبيانيّ في الحزن، إذ إننا نرغبُ في معاقبة الحياة اعتقادا منّا بأنّها عاقبتنا، ونبدو مثل أطفال استبدّ بهم الغضبُ وفشلوا في التخلّص منه. غير أنّي سرعان ما أدركتُ أنّ ثمّة كتابا واحدا على الأقلّ يتعيّنُ عليّ كتابتهُ، هذا الكتاب، وأن أفعل ذلك على الفور أو بعد عشر سنوات، وها أنا الآن أرى الأمر بوضوحٍ. أجل، سأفعلُ ذلك على الفور وبعد عشر سنواتٍ أيضا. تحتوي أسطوانة «غابرييل فوري» على القدّاس الجنائزيّ، وتليها مباشرة قطعة «نشيدُ جون راسين» (Le Cantique de Racine)، ولفترة طويلة ظللتُ أخلطُ بينهما، معتقدًا أنّهما عملٌ واحد متّصلٌ. إنّ «نشيد راسين» قطعة موسيقية عذبة كالثلج، ولذلك سأجلبُ الثلجَ في كتابٍ آخر عنك، بعد عشر سنواتٍ، هناك حيثُ ستحافظين على وجودك داخل هذا الصمت الأبديّ، وهذه العذوبة الأبديّة، عذوبةٌ ترافقُ كلّ ساعات النهار ولكنها لا تمضي معها، لا تمضي معها، لا تمضي معها.

عدتُ من مدينة «غرونوبل – Grenoble» حيثُ تقيمُ «هيلين».
ما هو مؤكّدٌ، أنيّ صرتُ أسافرُ كثيرًا بسببك. تستغرقُ الطريقُ التي بدأتُ في التعرّف على كلّ تفاصيلها حوالي ثلاث ساعات ونصف الساعة من القيادة. فحالما أتجاوزُ منطقة «ليزابري – Les Abrets»، على بعد خمسة أو ستة كيلومترات من الجبّانة، حيثُ ترقدين، تأخذُ الطريق في الارتفاع، ويشرعُ بياض قمم الجبال واخضرار الغابات في منافسة زرقة السماء. ولكن قبل ذلك، كان يتعيّن عليّ المرور على بلدة «بريس – Bresse» وذلك الجزء المنبسط من منطقة «إيزارْ». أمّا الريف المحيطُ بـ «سانت–أوندراس» فلا يختلفُ البتّة عن ريفِ «كروزُو»، وإن كانت غاباتهُ وأشجارهُ أقلّ. لقد أمضيتِ كلّ حياتكِ بين هاتين المقاطعتين، «بورغونْي – Bourgogne» و«دوفينيه – Dauphiné»، ومع ذلك أشعرُ أنّي أخطأتُ التعبير، ففكرة الانتماء إلى مقاطعة بعينها تبدو فكرة غامضة بالنسبة إلى قلب الإنسان. فأنا أنتمي مثلاً إلى بلدٍ يبلغُ طولهُ تسعة وعشرين سنتمترًا، وعرضهُ واحدا وعشرين سنتمترًا؛ هو ورقة الكتابة البيضاء. تقعُ بلدة «كروزو» في «إيزارْ»، وإن أردتُ توخّي الدقّة، سأضيفُ أنّ أجزاء من الريف تحيطُ بها.

ورغم أنّ مدينة «أوتان – Autun» تبعدُ عنها بأقلّ من ثلاثين كيلومترًا، إلاّ أنّي أشعرُ بالغربة فيها. في السّابق، عندما كنتُ أقصدُ «جامعة ديجون»، متجاوزًا مدينة «شانيِيه – Chagny»، أشعرُ وكأنّي سافرتُ إلى الخارج رغم أنّ عشرين دقيقة فقط بالسّيارة هي كل ما يفصلُ بين المدينتين. ومع ذلك، سيظلّ بوسعي تذكّرُ معالم الطريق بدقّة إلى أن تختفي الأشجار على جانبيها. تبدو لي الأماكنُ التي نعيش فيها شبيهة بالبشر، إذ بوسعنا التعرّف عليها من خلال أبسط الأشياء، كلون السّماء أو وعورةِ الأرض. بالنسبة إليّ، بلدكِ ليس «إيزارْ»، بل هو منزلٌ مصّممٌ على طرازٍ معيّنٍ، نطلقُ عليه طراز دوفينيه؛ فكلّ منازل المقاطعة لديها أسقف غريبة الشكل، وينبعثُ منها شيء مّا مكثّف وخفيف في الآن نفسه، يمتّعُ ما فيها من تناغمٍ عيني الرّائي، حتّى إنّه ليكفيني النظر إليها لكي تسترجع ذاكرتي نقاء الخطوطِ، ومعادلة «الرقم الذهبي»[5] التي اكتشفت صدفة في القرن السّابع عشر، واستخدمت في كلّ مكانٍ، من مسرحيّات «راسين» إلى هندسة القصور. يحدثُ أحيانًا أن يتّخذ قلبكِ ذلك الشكل المكثّف والخفيف، على نحو مباغت. ولكي أكون صريحًا معك، يتعيّنُ عليّ القولُ إنّك لو كنتِ تقيمين في بلدٍ آخر، لكنتُ وجدتُ فيه أيضا سحرًا عظيمًا، فنحنُ بالنهاية لا نعيشُ داخل مناطق أو حتّى فوق الأرض، وإنّما داخل قلوب من

5 - ويسمى أيضا "النِّسبة الذهبية"، وهو الرقم: **1.6180339887**. يعتبر هذا الرقم من أكثر الأعداد إثارة للجدل وبعثا للغموض: بالنظر إلى تعبيره عن التناغم والانسجام الموجودين في كل مكان في الطبيعة.

نحبّ؛ ذلك هو وطننا الحقيقيّ.

في العام الماضي، أردتِ شراء منزلٍ من ذلك الطراز، يقعُ في بلدتك، عُشّك، جحركِ، والمكان الذي أردتِ الاختلاء فيه بعيدًا عن «سانت- أوندراس». ولقد عثرتِ عليه بالفعل، بيد أنّك عجزتِ عن دخوله، إذ سبقك إلى شرائه أشخاصٌ آخرون ببضع دقائق، ومع ذلك، نجحت في إقناع أصحاب المنزل بالرّجوع عن وعد البيعِ. وكان من شأن ذلك أن فُتحتْ قضّية في الغرض، رحتِ تتابعين أطوارها، معاينة بطء الإجراءات القضائية؛ وهو بطء تفوّق على بطئك، كما رحتِ تهاتفين أصحاب المنزل بانتظام مذكرة إيّاهم برغبتك في اقتنائهِ. ورغم سخريتك الدائمة من امتلاك أيّ متاع دنيويّ، كانت تلك هي المرّة الأخيرة التي قاتلت فيها بلا هوادة من أجل امتلاك شيء مّا حتّى آخر رمقٍ فيك. لقد استحوذ المنزلُ على تفكيرك كلّهُ حتّى بلغ الأمرُ حدّ الهوس، عند حديثك عنه. فعندما نأتي على سيرة المشاكل المتعلّقة بهِ، كالكهرباء الواجبُ تركيبها أو الثلوج التي تسدّ الطرقات في فصل الشتاء، كنتِ تجيبين: أعرفُ ذلك، ولكن هل رأيتم تلك الوردة البريّة أمام جدار البيت، هل شعرتم بما في الهواء من عذوبةٍ عند الشرفة، ألا ترون أنّ ثمّة سحرًا في هذه الحديقة الصخريّة المائلة؟

لطالما رأينا في تلك الأشياء التي نريدُ امتلاكها أكثر ممّا فيها. لقد أردتِ اقتناء ذلك المنزل ليقيم فيه أطفالك لاحقًا، ولكن أردتِ

أيضا الحصول على نصيبك من الوحدة، وحدة لا تحتملُ وجود الأزواج، ولا تعنيهم من الأساس، ولا تعني حتّى الأطفال، وحدة لا تساوي شيئًا أمام عزلتكِ الأبديّة فوق مرتفعات «سانت-أوندراس»، ومع ذلك، جلّ ما كنتِ تحتاجينه هو غرفة شبه فارغة حيثُ يكون بوسعك التفكير والحلم والقراءة والانتظار، مكانٌ مّا في هذا العالم لا تضطرّين فيه مجدّدًا إلى الإجابة بـ «حاضر» حين يناديك أحدهم، فضاء صغير مصمّم على طراز دوفينيه، فضاء صغير مشكّل من العزلةِ والنورِ والهدوء.

الرّجال هم صبيانٌ مطيعون، ويعيشون على النحو الذي علّمهم إيّاهُ آباؤهم. وعندما يحينُ أوانُ مغادرة أحدهم لحضن أمّه، يقولُ: «حسنًا سأغادر، ولكنّي أحتاجُ امرأة. لديّ الحق في عدد معيّن من النساء يكنّ لي وحدي فقط؛ واحدة لسريري، وأخرى للمطبخ، وأمّا لأطفالي، ولي أيْضًا، أُمّا لن تشفى قطّ من طفولتي». وإذ يبدو لهم أنّ أفضل طريقة للاحتفاظ بالمرأة هي الزواجُ بها، يتزوّجونها ومن ثمّ يتعاملون مع مؤسسة الزواج كبلاء إضافيّ، أو واجبٍ ثقيل لا مهرب منهُ، كالعمل داخل مؤسسة مقابل أجر، أو التسوّق أيّام السبت. وعندما يحدثُ أن يتزوّج أحدهم بامرأة، ينسى أمرها تماما، ويمضي إلى أمور أخرى كاللعب بالحاسوب، أو إصلاح رفّ، أو قصّ حشائش حديقة البيت. تلك هي طريقتهم في أخذ قسطٍ من الرّاحة من حياةٍ يعيشونها كما لو كانت طقسًا سيّئًا، وفي الرّحيلِ دون أن يرحلوا فعليّا. مع الزواج، ثمّة شيءٌ مّا ينتهي لدى الرّجال، بينما يحصلُ العكس تماما لدى النّساء، فالزواجُ بالنسبة إليهنّ يعني بداية شيء مّا. فمنذ مرحلة المراهقة، تهرعُ النساءُ مباشرة إلى وحدتهنّ، حتّى ينتهي بهنّ المطافُ إلى

الزواج بها. والوحدةُ ههنا قد تكونُ هجرًا أو قوّة أيضا، وذلك ما يكتشفنهُ في مؤسسة الزواج في ما بعد؛ فغالبا ما يكونُ الزواجُ قصّة ترغبُ فيها النساءُ بمفردهنّ، ويحلمن بها عميقا بمفردهنّ، ويحملنها على عواتقهنّ بمفردهنّ، وذلك ما يفسّر أحيانا إحساسهنّ بالملل واتخاذهنّ قرار هجر أزواجهنّ، وكأنّهن يقلن: ما دمنا نعيشُ كلّ ذلك بمفردنا، فلنعش وحدتنا إذن بكلّ امتلاء.

لقد تزوّجتِ مرّتين، وعشتِ التجربتين بالبراءة والحبّ النقيّ نفسيها. وها أنا ذا أقسمُ أنّكِ كنت تعرفين أنّ لا أحد بوسعهِ تلبيةُ حاجتك إلى الحبّ، وهي معرفة أعطيت لكِ حتّى قبل زواجك الأوّل. لا أحد بوسعهِ أن يملأ تلك الهاوية التي حلّت محلّ قلوبنا، باستثناء الله ربّما، بيد أننا لم نجد بعدُ الطريقة التي نجرّهُ بها إلى قصر البلديّة لكي يقترن بنا. ولعلّ هذهِ النقطة هي ما يفسّرُ ما لم أدركهُ من تفاصيل حياتك. لم يسبق لي أن تزوّجت ولهذا لا أفهمُ طبيعة الزواج، فبالنهاية ليس في مقدور المرء أن يفهم تلك الطبيعة، إلاّ من خلال التجربة، والاحتفاظِ بالحياةِ، في بعدها الخام، داخل حيواتنا.

عندما ندخلُ في علاقة، مهما كانت طبيعتها، نكونُ قد عرفنا كلّ شيء عن الطرف الآخر مقدّمًا، إذ يكفي أن نعاين شخصا يمرقُ عبر الباب، ونتطلّع إلى تلك الطريقةِ التي تسافرُ بها روحهُ، لكي نخمّن كل شيء عنه، ماضيه وحاضره ومستقبلهُ. ومن ثمّة

يمنحنا على الفور ما كان سيمنحهُ لنا وجودهُ في حياتنا من معرفةٍ لاحقًا. إذن من نتزوّجُ عندما نتزوّج؟ ومن ذا بوسعهِ معرفة ما يدورُ في قلب امرأة متزوّجة؟

إنّ معارف قرون طويلة في علوم اللاهوتِ والتحليل النفسي لم تكن قادرة على منحي الإجابة بقدر ما فعلت ذلك أغنيةٌ لـ «إيديث بياف – Edith Piaf»، أغنية بسيطة في الظاهر بيد أنها تساوي وزن كلماتها ذهبًا؛ لأنّها تروي ما هو بديهيّ في حياةِ امرأة عاشقة نسيت كلّ شيء، بما في ذلك ما تعرفهُ عن الحبّ:

لا.. لا شيء على الإطلاق

لا.. لست نادمة حيال أيّ شيء

لا المعروف الذي صنعوه لي

ولا الشرّ،

كلّ هذا لا يهمّني

لا.. لا شيء على الإطلاق

لست نادمة حيال أيّ شيء

فحياتي،

وأفراحي،

تبدأ اليوم

معك أنت...

ثمّة شيء مّا رهيبٌ يحدثُ في حياةِ كلّ إنسان، شيءٌ مّا يغدو ثقيلاً حين يلامسُ عمقها، على نحوٍ فظيعٍ وقاسٍ ولاذعٍ، شيء يبدو مستودعًا وأثقالاً ولطخةً في الآن نفسهِ، مستودعَ حزنٍ وأثقالَ حزنٍ ولطخة حزنٍ. وبخلافِ القديسين وعدد قليل من الكلاب الضّالّة، لا أحد منّا ينجو من عدوى الحزنِ، قليلاً أو كثيرًا. أجل، قليلاً أو كثيرًا. وبوسعنا معاينةُ ذلك حتّى في احتفالاتنا؛ فالفرَحُ يعدُّ من أندر الأشياء في هذا العالم، ومن ثمّة يجبُ ألاّ نخلط بينهُ وبين الابتهاجِ أو التفاؤل أو الحماس. الفرحُ ليس إحساسًا، لأنّ كلّ مشاعرنا مشكوكٌ في أمرها، وبالمثل، هو لا ينبعُ من الدّاخل، وإنّما ينشأ بغتةً في الخارج، كشيء بسيطٍ، عابرٍ، خفيفٍ ومحلّق. أضف إلى ذلك، لا أحد يثقُ في الفرح قدر ثقتهِ في الحزنِ، فالحزنُ يعطي قيمةً أكبر لسوابقهِ وثقله وعمقه، بالمقابل، ليس ثمّة سوابق أو ثقل أو عمقٍ في الفرح. الحزنُ موجودُ في البدايات، وفي حركات الطيرانِ، وحتّى في اختلاجات قُبّرة. إنّه أثمن ما يوجدُ في العالم وأقلّ الأشياء قيمة في الآن نفسه. وهذهِ حقيقةٌ لا يعرفها سوى الأطفالُ؛ الأطفالُ والقديسون والكلاب

الضالّة و... وأنتِ. لطالما التقطتِ الحزنَ سريعًا وأبعدته عنك بالسرعة نفسها، وذلك كلّ ما كان بوسعك أن تفعليه. بعد ذلك، تشرعين في الضحك. لا شيء تفعلينهُ سوى الضّحك أمام كلّ تلك الثروةِ التي تلقيّتها وأعدتها. ومع ذلك أنت مثلنا جميعًا، يحدثُ أن تتعاملي مع ذلك الشيء الرّهيب في حياتك، ذلك الظلّ الثقيل على نحوٍ فظيعٍ وقاس ولاذع، وتفسحي لهُ مكانًا داخل قلبك كغيرهِ من المشاعرِ. بيد أنّك حين تفتحينَ بابك للحزن، تفعلين ذلك برقّةٍ إلى حدّ يفقدُ معه بوصلتهُ، ويفقدُ أساليبهُ القاتمة، حتّى يصبحُ من المستحيل التعرّفُ عليه.

إنّ تلك النعمة ثمنها باهظٌ. فالفرحُ اللامتناهي يحتاجُ شجاعةً لا متناهيةً. ولذلك، عندما تضحكين، يكونُ ما أسمعهُ حقًا هو صوتُ شجاعتك، شجاعةٌ ما هي إلاّ حبّ مفرطٌ للحياةِ إلى حدّ تعجزُ معه الحياةُ على تعتيمهِ.

حوّمتِ أولى ندف الثلجِ، على نحوٍ أخرق فوق الأرض الباردة. صحيح أنّها تقدّمت طلائع الطقس البارد، لكنّها لم تلبث أن رحلت. رحلت خفيفةً، بعدما دارت حول نفسها ثلاث دوراتٍ قصيرة، ورقصت مرّتينْ. الثلجُ طفلٌ حالهُ في ذلك حال الحبِّ والموت. الحبُّ والموتُ متشابهان، لأنهما يمنحاننا ذلك الذهول الأبيض. الثلجُ والحبُّ متشابهان كذلك، والموتُ والحبُّ متشابهان لأنهما يوقظان فينا تلك الطفولة المحمومة. صحيح أنّ الموتَ يصطادُ الرضّع والعجائز والجنّيات، صاحبات الأربع وأربعينَ عامًا، أو الأربع وأربعين عامًا ونصف العام إن شئنا الدقّة، غير أنّهُ يختطفُ أعمارهم أوّلاً قبل أن يحملهم بعيدًا.

خارج دائرة الزمّنِ، نشعرُ بالسّعادة حين نرى الموت والحبّ والثلج. فأمام الثلج، نحنُ جميعا أطفال. وأمام الحبّ، نحنُ جميعا أطفال. وأمام الموت، نحنُ جميعا أطفالٌ.

الثلج صبيّة ترتدي فستانا أبيض، صبيّة صغيرة، عمرها عام أو عام ونصف العام، تخطو أولى خطواتها على أديم الأرض، تظهرُ وتختفي، ثمّ تعاودُ الظهور في العام الموالي، محافظةً دوما على السنّ

نفسها، لا تشيخُ، مثلكِ تمامًا في موتك؛ إذ ستظلّين محافظةً على سنواتك الأربع والأربعين، أو الأربع وأربعين ونصف، حتّى نهايةَ الزمان. لطالما خفتِ من الشيخوخة، حين كنتِ حيّة، بيد أنّك لن تشيخي بعد الآن، وسيظلّ نطق اسمكِ، حتّى نهاية الزّمان، يجلبُ إلى طرف لساني طراوة أولى ندف الثلج، وهي تدورُ حول نفسها ثلاث دورات قصيرة، وترقصُ مرّتين.

لقد كنتُ سعيدًا لرؤية أولى ندف الثلج. كنتُ سعيدا وتعيسا في الآن نفسه، وطفقتُ أرتّلُ قائمة بالأمور التي لن تفعليها مجدّدا، أجل، أنت لن تري الثلجَ مجدّدا، ولن تريْ زهور الليلكِ مجددا، ولن تريْ الشمس مجدّدًا، لأنكّ صرت ثلجًا وزهور ليلكٍ وشمسًا.

كنتُ سعيدًا وحزينا في الآن نفسهِ، لأنّي عثرتُ عليك بين الأرض والسماء، ترقصين كعادتك دومًا، متناثرةً على هيئة نقاط ضوء بيضاء، باردة وشابّة للغاية، عمرك أربع وأربعين عامًا، تدورين حول نفسك ثلاث دورات قصيرة، وترقصين مرّتين.

لقد صرتِ ثلجًا وزهور ليلكٍ وشمسا وحبرًا. أراكِ في كلّ مكانٍ، رغم أنّك صرتِ تنتمين إلى اللامكان، حتّى إنّي بتُّ أعثرُ عليك داخل الكتب. بعد موتكِ، واجهتُ صعوباتٍ كبيرة في قراءة الكتب. تحسّن الأمرُ قليلاً الآن وصرتُ أكتفي بإلقاء نظرة على العناوين. أدير رأسي إلى المكتبة، وأنظرُ. الكتابان اللذانِ

وضعتهما بشكلٍ قائمٍ ما يزالان هناك، بيد أنّك تسلّلتِ إليهما، إلى ما فيهما من عذوبةٍ، وندفٍ ثلجيّة تلمعُ تحت عنوانيهما، «مرآةُ الأرواح البسيطة والمسحوقة» و«حياتي بلا أنا». ولقد حدث أن أضفتُ إليهما عنوانا ثالثًا لا تعرفينه، بعد أن عثرتُ ليلة أمسٍ على كتابٍ تحت سريري، سرعانَ ما وضعتهُ داخل المكتبة بشكلٍ قائم، كتابٍ غلافه شبهُ ممزّقٍ، أو قُرِضَ بالأحرى، فقبل بضع سنواتٍ كان لـ «هيلين» أرنبٌ، أذكرُ أنّك طلبتِ منّي الاحتفاظ بهِ في إحدى العطل، لكنّي أخرجتهُ من القفص فراعني أنّه حوّل الشقة إلى جحرٍ كبير، وراح يقرضُ الكتب، متخيّرًا كتاب الفلسفة ذاك دونا عن غيره، ما جعلني أفترضُ أنّ مذاق أوراقهِ ورائحتها هي ما جذبهُ، ولا بدّ أن ذلك أسعدهُ كثيرًا، إذ إنه التهم نصف الغلاف، فيما ظلّ العنوانُ قابلاً للقراءة. حين فتحتُ الكتاب، وعنوانهُ هو «الحضور الكامل»، عثرتُ على هذه الجملة: «إنّ هذا الكتاب القصير الذي سنقرأه معًا يعدُّ عربون ثقةٍ بيننا، في الفكرِ والحياة». أغلقتُ الكتاب وابتسمتُ، لأنّ الأمر لم يكن يستحقُّ عناء المضيّ أبعد من تلك الكلمات. لقد عثرتُ عليك هناك، في ما تبثّهُ تلك الكلمات القليلة من بهجةٍ.

بعد وفاتك، لم ألمس سوى كتب الفلسفة، لا لأنّي أبحثُ فيها عن معنى لموتك، أو إجابةً ترضي فضولي بخصوص رحيلك، فأنا أعرفُ أنّها لن تمنحني ذلك، وإنّما بسبب ما تحدثهُ فيّ أصواتها وأساليبها ونبراتها من مشاعر. ثمّة شيء مريحٌ في الفلسفة، قد

يكون عائدًا إلى طريقتها في مخاطبة الأحياء وكأنهم موتى بالفعل. بيد أنّ تلك الفترة لم تدم طويلاً، فما دامَ هو المراسلات والرّسائل التي أتلقاها بوصفي «كاتبا»، علاوة على طلب لقاءات توجّه إليّ، لم أستجب لها منذ يوم الثاني عشر من أغسطس 1995، ولن أستجيب لها قطّ، لأنّ موتك واصل ما كانت تفعلهُ حياتك معي؛ إذ أنقذني، وفصلني عن العالم، ومنح حياتي كلّ ما في تلك العناوين الثلاثة، «حياتي بلا أنا» و«مرآة الأرواح البسيطة المسحوقة» و«الحضور الكامل»، من ثقلٍ. والحقّ أنيّ غالبا ما كنتُ ألقي نظرة على تلك الكتب، ثمّ أعودُ مجدّدًا إلى النافذة. فرغم ما تحتويه تلك الكتبُ من نصوص تضيءُ الإدراك، إلاّ أنها كانت تمنحُني نورًا أقلّ ممّا تمنحني إيّاهُ أولى ندف الثلج.

انتهيتُ للتوّ من قراءة كتاب «فْرِيد أولمان – Fred Uhlman» «العثورُ على صديق» (L'ami retrouvé)، كتابٌ تعوّدتِ على اقتراحه كلّ عامٍ على تلامذتك. تجري أحداث قصّة الكتاب في ألمانيا إبَّان ثلاثينيّات القرن العشرين، وهي من تلك القصص المكرّرة التي تروي أطوار نشوء الهمجيّة وطريقتها في التسلّل إلى رؤوس البسطاء من النّاس. لطالما رغبتُ في حضور واحدٍ من دروسك، والإنصات إلى تعليقاتك على هذا الكتاب. ومع ذلك، أشعرُ بأنيّ أسمعها الآن. لم يحدث قطّ أن عقدتِ تسويات مع هذا العالم، حتّى إنّك مضيت إلى عامك الرّابع والأربعين بقلب ابنة ستّة عشر ربيعًا، قلبٌ لا مكان فيه للضجّر المُعلّلِ أو الاستكانةِ في أسوأ الظروف. ولقد سنحتْ لك الفرصةِ لمعاينة كيف خضعت مهنتكِ لمنطق عالمٍ قائم عل التسويات، إذ فتحت المدارسُ أمام الشركات، وتم تكييف منظومات تربوية عفا عليها الزّمن، وكان الخطابُ الرسميّ في الموعدِ لتبرير ذلك. لطالما كانت الخطاباتُ المبرّرةُ للعبوديّة في الموعدِ. ومن ثمّة شكّل اقتراحك لكتابِ «فريد أولمان»، دعما لعقول الناشئة، ووفّر لها كلّ ما يحتاجهُ التفكيرُ

السليمُ من طمأنينة ودهشة. لا أحد منّا يعرفُ يقينا ماذا تصيرُ الكلماتُ التي نقولها أو الجمل التي نكتبها. أمّا أنتِ فيكفيك أن تلميذا واحدًا من بين تلامذتك امتلك ذلك الكتابَ وراح يغذّي رؤاهُ حول نفسه والعالم، لكي تشعري بأنّ جهودك لم تذهب سدى.

لا يتحدّث ذلك الكتاب عن ألمانيا في سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين فحسب، بل يشيرُ إلى لحظة ميلاد الشرّ. الشرُّ عندما يولدُ يكونُ لطيفًا ومتصاغرًا لكيلا أقول متواضعًا. بعد ذلك، يتسلّلُ إلى روح العصر كما يتسلّلُ الماء تحت الباب. وباستثناء ما يخلّفهُ من رطوبة أوّل الأمر، لا يحدثُ أيّ شيء ذي بال تقريبًا، ولكن ما إن يفيض حتّى يكونُ الأوان قد فات. وللشرّ معاونان هما لامبالاةُ الطيبين وفطرتهم السّليمة. والمعلومُ أنّ أعظم الشرور كان الطَّيِّبون سببا في حدوثها. ولكَم رغبتُ في أن أعرض عليكِ رسالة لـ «دوستويفسكي – Dostoïevski»، كنتُ قد عثرتُ عليها مؤخّرا، رسالة يقولُ فيها: «هل تعلمون أنّ عددا كبيرًا من النّاس يعانون من صحّتهم الموفورةِ على وجهِ الدقّة، أيّ من يقينهم المفرط في كونهم أناسا عاديّين؟».

لقد ضحكتُ عندما كتبتُ الجملة التالية، لأنّها بدت لي بديهيّة للغاية: «لم تكوني يومًا شخصا عاديّا يا «غيزلان»؛ لقد كنتِ مجنونةٍ على نحوٍ يأسرُ القلوب».

وإن كان العالمُ يفيضُ بالقتل، فلأنّهُ واقعٌ تحت سيطرة أشخاص قاموا بقتل أنفسهم أوّلاً، من خلال خنق ما في دواخلهم من ثقةٍ فطريّة، وما أتاحوه لأنفسهم من حرّيةٍ ذاتيّة. وبسبب ذلك، لطالما أبديتُ تعجّبي من جنوح النّاسِ إلى الاحتفاظ بالنزر اليسير فقط من تلك الحريّة، وطرائقهم في التنفّس على بلّور التقاليد الاجتماعية، ومراقبة ما ينشأ منها من أبخرة تعيقُ الحياةَ والحبّ. أمّا أنت يا «غيزلان»، فلقد حظيت بأجمل نفسٍ في العالم، نَفَس هو الأكثر وفرةً وطراوة، وربّما بسبب ذلك تبدين لي أكثر حياةً في موتكِ. إنّ موتك يبدو مثل موتِ طفلٍ ألقى بكلّ ثقله على العالم حتّى كاد ينقطع عنهُ النّفس.

ثمّة وجهان أنارا دربي في هذا العالم، يرقدان الآن تحت الأرض: الوجهُ الأوّلُ يبتسمُ، أمّا الثاني فيضحكُ ملء شدقيهِ، ومن مكمنهما العميقِ تحت الترابِ الأسود، يواصلان منحي كلّ نورهما.

الوجهُ الأوّلُ هو وجهِ امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، كما تظهرها الصّورُ التي لا نرى فيها جسدها بأكمله، بل وجهها ورقبتها فحسب. تظهرُ المرأة مرتدية بلوزة من الدانتيل الرّفيع، وتنظرُ مباشرةً إلى الأمام، وفوق شفتيها ابتسامةٌ خفيفة. يبدو الوجهُ وكأنّهُ يخرجُ من بين غلالةٍ من الدانتيل الأبيض، وقد أحاطها ضبابُ الوقت من كلّ جانبٍ، ضبابُ فترة درجنا على تسميتها بفترة «ما بين الحربين». تلك المرأة هي جدّتي لأمّي، امرأة حدث أن رأيتها مرّتين فقط طوال حياتي. المرّة الأولى، كنتُ ما أزالُ طفلاً صغيرًا، حين رافقت أمّي لزيارة سيّدة عجوز، تقيمُ داخل منزلٍ به الكثيرُ من الأروقة. أمّا المرّة الثانية، فكانت حين أخرجناها من ثلاّجة الموتى ووضعناها داخل نعشٍ، بعد أن أمضت الأربعين عاما الأخيرة، وهي مدّة تزيدُ أو تنقص، تقيمُ بين

المصحّات النفسية. جنونُ الارتياب هو اسمُ مرضها. اسمٌ يشبهُ حاملة مفاتيح، اسم مغلقٌ على نفسه جيّدًا. إنّ المصيبة، كالغنى تمامًا، تتراكمُ عبر أجيال عديدة، قبل أن يأتي فردٌ واحدٌ ويرثها كلّها ثمّ يبدّدها. والحقّ أني لا أعرفُ الشيء الكثير عن أسلاف تلك الجدّة، وبالمثل لا أعرفُ عمّن ورثت ذلك المرض؛ فبالنهاية ليس المرضُ سببًا، بل إجابة ضعيفة نبتكرها ليكون للمعاناة معنى. ورغم أني أعرفُ الإجابة، إلاّ انّ السؤال يفلتُ منّي. يكونُ المرضُ في أوّل أمره «اكتئابا»، ومع نقص الأدويةِ ورعونة أطباء تلك الفترة، يصبحُ الإيواء بالمصحّ العقليّ، أمرًا لا مندوحة عنه. آنذاك، كنتُ قد تعرّفت على زوجها؛ إذ بقي يعيشُ مع والديّ حتى وافتهُ المنيّة. لم يكن رجلًا سيئًا، بيد أنّه لم يكن، ببساطة، من ذلك النوع الذي يمكنُ للمرأة أن تعتمد عليه. هل لذلك الطرازُ من الرّجال الذي تبحثُ عنهُ النساء من وجود؟ مثل أي شخص آخر، لدي عينان أرى بهما، وأنا رجلٌ يرى، ويكتبُ فقط ما يراهُ. لقد التفتُّ إلى صورة الجدّة حالما شرعتُ في الكتابة؛ والحقّ أنيّ أجهلُ سبب التفاتي، لكن ما أعرفه هو أنّي أستمدُّ قوّتي ووضوحي من ذلك الجهلِ تحديدًا.

الوجهُ الثاني هو بالتأكيد وجهك، غير أنّهُ يشبهُ الوجه الأوّل كما تشبهُ صورةُ فوتوغرافيّة صورتها السّالبة. كلّ شيء فيك موجودٌ ولكن على نحو معكوس. فجنونك يميلُ أكثرَ إلى الحياة. والحقّ أنك أكثر إنسان عاقلٍ رأيتهُ في حياتي. فمنذ لحظة ولادتك، رغبتِ

في كلّ ما ترغبُ فيه نساءُ العالم، الحرّية والحبّ، الحبُّ المنطلقُ داخل الحريّة، والحرّية المكرّسة داخل الحبّ. هل يبدو تحقيق تلك الرّغبة أمرًا مستحيلاً؟ نعم، هو كذلك، بيد أنّك عشتِ رغبتك تلك ولم تتخلّي عنها قطّ. بالمقابل، لم يمنع ذلك عنك الأذى أو انسداد الطريقِ، فحتّى أكثر النّساء تشبّثًا بالحريّة، لا يكنّ أحرارًا مهما فعلن، بل يواصلن حياتهنّ عالقات في فترة «ما بين الحربين».

الثلجُ هو ما يعودُ لكي يبقى هذه المرّة، ويزيلُ كلّ العوائق أمام الرؤية حينَ يبسطُ رداءهُ الأبيض على ما في المشهد الطبيعيّ من اختلافات طفيفة. وبالمثل، موتكِ هو ما يبقى باسطا رداءهُ على ما في مروركِ على الأرض من تصرّفاتٍ فريدةٍ، وتفضيلك لأشياء بسيطةٍ بعينها، كالوسادة التي تضعينها على مقعد السيّارة، والقبّعة المخروطية ذات اللون البرتقالي التي تستخدمينها في موسم الصيف، وقطع الحلوى التي تخفينها في قعر الدّرج، وعثور ابنتك «هيلين» الدائم عليها، وثوب النوم البنفسجي المعمول من الصوف الثقيل، ثوب كان أيّ متشرّد سيرفض ارتداءهُ ومع ذلك كنت تفضّلين ارتداءهُ دوما في البيت، وجهاز مشغّل الموسيقى الذي تستخدمينهُ في الاستماع إلى أشرطة الكاسيت بينما تتحدّثين عن «نيتشه – Nietzsche»، و«كيركغارد – Kierkegaard»، و«باسكال – Pascal» وكوب الشوكولاتة الساخنة التي تحبين شربها كالأطفال بعد عودتك من المدرسة، والنباتات الخضراء التي تصرّين على سقايتها في شرفة شقتك بينما تصرُّ هي على الذبول، وأشياء أخرى تشكلُّ روابط دقيقة بين الحياةِ وحياتك.

ومع ذلك ستتولّى ذاكرتي عمّا قريب عمليّة الفرزِ، وستتدفّقُ ندف الثلج ببطء لتغطّي ما كانت رفاهيّتك المنزليّة تتمسّكُ بهُ؛ تلك الجسيمات الدقيقة الموجودة في أغراضك: وسادتك، وقبّعتك، وثوب نومك، وحلواك، والشوكولاتة الساخنة وبخارها المتصاعدُ من الكوب، والنورُ الهادئ المنعكس من النباتات الخضراء. كلّ تلك الجسيمات الدقيقةِ، ستحجزُ في غضون بضع سنوات، أو ربّما بضعةِ أشهرٍ، داخل شلالٍ من النور الأبيض، ومع ذلك لن تُنسى. كلّ ما سيحدثُ هو أنّها ستغيّرُ أماكنها وظلالها. لن تتحدّث بعد الآن عمّا في حياتك على الأرض من عذوبةٍ، ستصبحُ صورًا ملوّنة عن حياتك الأبديّة، هناك حيثُ أنتِ، حيثُ اللا مكانُ واللا فضاءُ، هناك حيثُ أنتِ، حيثُ أتخيّلكِ وأنت تشربين كوبا من الشوكولاتة السّاخنة، مرتدية ثوب نومك البنفسجي القديم، أو تستمتعين بالإنصات إلى «أصوات السّماء» (طالما أنه لم يكن ممكنا أن تحملي جهاز مشغّل الموسيقى معك إلى هناك)؛ أصواتُ هي أكثر وضوحا ودقّة من أصوات «نيتشه»، و«كيركغارد»، و«باسكال».

لقد كتبتُ «أصوات السّماء»، وعليّ أن أعترف أنّ معاني بعض العبارات المماثلة تغيبُ عنّي عندما أكتبها. أودُّ حقّا الاستماع إلى هذه الأصوات، لكنيّ أعرفُ أنّ هذا الأمر مستحيل في الوقت الحالي. يتعيّنُ عليّ أوّلا أن أقوم بتلك الخطوة الضئيلة التي قمت بها في صباح يوم الثاني عشر من أغسطس سنة 1995. سيكون عليّ أن

أرحل لأعاين الهواء والضوء من الجانب الآخر. وفي انتظار ذلك اليوم، سأكتفي بهذه الأرض مكانا للتفكير. سأنتظرُ أن يحدثَ ذلك هنا وفي هذه الساعة، كما ورد في تلك الصلاة القديمة: «الآن وفي ساعة احتضارنا». الحقُّ أنيَ أحبُّ تلك الصيغة القديمة التي لم يعد يستخدمها أحد، ففيها تجمّعت الكلماتُ الثلاث وكأنّها قطع من الشمع الذائب أسفل شمعدان. الآن وفي ساعة احتضارنا. فالوقتُ في هذهِ الصلاةِ يبدو مشكّلاً من هنيهاتٍ تُختَزَلُ كلّها في لحظةٍ زمنيّة وحيدة: في الحاضر، في لحظة الموت، لا قيمة للمستقبل أو للماضي. كلّ ما هناك هو تلك اللحظة الرّاهنة المقدّر لها أن تمضي إلى أن تتزامن مع لحظةِ موتنا. ومرّة أخرى، يعدُّ الحبُّ الطريقة المثلى للاستفادةِ من تلك اللحظة، والبقاء قريبًا من هشاشة الحياة وعذوبتها.

أتذكرُ يوما ما من أيّام الصيف، كنّا نسبحُ معا، جنبا إلى جنب، في مياهِ نهر «مونتوبري – Montaubry» القريب من بلدةِ «كروزو»، ولم أستطع منع نفسي من الحديث إليك حتّى ونحنُ في الماء. لطالما كان لديّ ألف أمرٍ أحدّثك بهِ. في ذلك اليوم، تبادر إلى ذهني تعريف لك، هكذا في الماء وتحت الشمس، ورغم أنّك تسمين على أيّ تعريف، قلتُ لكِ، هل تريدين أن تعرفي من تكونين بالنسبة إليّ؟ أنت من تحولين بيني وبين الإحساس بالاكتفاء. أعرفُ أن لديّ ميلاً قويّا للعزلة، فبوسعي البقاء لوحدي أيّاما وأسابيع وشهورًا كاملةً، أمضيها غافيا، هادئًا،

ومتخما بنفسي مثل رضيع حديث الولادة. وجودكِ هو ما قطع غفوتي، وأفرغ ميلي للوحدة من قوّته. كيف يمكنني أن أشكركِ على ذلك؟ أعرفُ أنَّ بوسعنا منح أشياء كثيرة لمن نحبّ، كالكلمات والرّاحة واللذة، بيد أنّك أعطيتني أثمن ما في الوجود: الاشتياقُ؛ فأنا لا أستطيعُ الاستغناء عنك، حتّى إنيّ أشتاقُ إليكِ أكثر عندما أراكِ. عقلي وقلبي كانا بيتين مغلقين جيّدًا، ثمّ جئتِ أنتِ وكسّرت جميع النوافذ، فاندفعت تيارات هوائيّة باردة، وساخنة، ومعها كلّ صنوفِ النوّر. ذلك ما فعلتهِ يا «غيزلان»، وما تستمرّين في فعلهِ إلى اليوم؛ فأنتِ كنتِ ومازلتِ ذلك الشخصُ الذي من خلالهِ يندفعُ الاشتياقُ والتصدّعُ والتمزّقُ إلى حياتي، ويغمرها بفرحٍ عظيم. هذا هو الكنزُ الذي تركتهِ لي: الاشتياق، والتصدّع، والتمزق، والفرح. وكنزٌ كهذا يستحيلُ أن ينضب، بل سيكونُ كافيا لي لكي أنتقل من «الآن» إلى «الآن» حتّى تحين ساعة موتي.

قبل موتكِ بثلاثة أيام، اقترحتِ عليّ، وقد كنت وقتها تقيمين في «سانت أوندراس» أن نتنزّه معًا حتّى نبلغ الجسر الأحمر. يبعدُ هذا الجسر عن منزلك الصيفيّ بحوالي ثلاثمائة مترٍ، وليس لهُ في اللون الأحمر من نصيبٍ سوى الاسم فحسب. غالبا ما كنت تدعينني إلى ذلك النوع من النزهات حين لا يكفيك الوقت. أذكرُ أنّي أخبرتك، ونحن نتمشّى، أنّي أشتغلُ على كتابٍ يتحدّثُ عنك، وبالاسم، فابتسمتِ. حينئذٍ أضفتُ أنيّ كتبتُ الجملة الأولى بالفعل، جملة تقول: «إن أنا باركتُ هذهِ الحياة، فلأنّك موجودة فيها». فجأة توقّفت عن المشي، وسألتني: «حسنا، ماذا ستكتبُ لو رحلتُ عن الدنيا؟»، ودون تفكير قفزت الإجابةُ على لساني؛ لقد تركتها تخرجُ دون أن أحاول التحكّم فيها. صحيح أنّها لم ترضني، بيد أنّ ذلك لم يكن مهمّا بالنسبة إليّ، فمبدئي في الحياة هو المحافظة على فوضى الأشياء في كلماتي دون تدخّل منيّ. لقد أجبتكِ قائلاً: «إن حدث ورحلت عن الدنيا في يوم من الأيّام، سأستمرُّ في مباركة الحياة وعشقها». حينئذٍ ضحكتِ ملء شدقيك، ثمّ قلتِ لي مغتبطةً: «هكذا أفضل، بل أفضلُ كثيرًا. أريدك أن تعدني بأن

تكتب هذه الجملة كما هي عندما تنجزُ هذا الكتاب، وإلاّ فسيكونُ ما تكتبهُ أدبًا، وأنت تعرف أنّ عليك ألاّ تكتب أدبًا، بل أن تكتب فحسب؛ وشتان بين الفعلين. هيّا عدني». ووعدتكِ ثمّ انتقلنا إلى موضوعٍ آخر تمامًا، ونسينا أمر الموت بالفعل، وكأنه أمر بعيد الحدوث، بعيد جدا، رغم أنّهُ تطفّل، قبل لحظاتٍ قليلة، على ما كنّا فيهِ من حديثٍ.

قريبًا سنرمي برزنامة العام 1995، وسيغلقُ عليك قفصها إلى الأبد. بيد أنّي لا أهتمّ، فأنا لم يسبق لي أن عشتُ يومًا داخل الوقت، ولا أحد في واقع الأمر سبق له أن عاش داخلهُ. قد يعيشُ المرءُ داخل الفراغ أو في الصحراء، ولكن داخل الوقت، لا. نحنُ نعيشُ داخل ما يحدثهُ فينا حدثٌ ما من فراغ، ثمّ ننتقلُ إلى حدثٍ آخر. صحيح أنّ الانتقال من حدثٍ إلى آخر قد يستغرقُ أحيانا عدّة سنواتٍ، ولكنّ الفراغَ هو ما يفصلُ بينهما بالنهاية. حسنًا، قد يكون ما قلته غير دقيق بعض الشيء؛ إذ يحدثُ أحيانًا أن يسطعَ في الفراغ نورٌ جميل، صادر عن وجهٍ أو كلمة أو حركة. لا أخفيك سرا إن قلت إنّ لدي شغفا بالوجوه، حتّي إنيّ أعدُّ تأمّلها نشاطا رئيسًا لي، بيد أن التأمّل يفترضُ أنّ نتخذ مسافةً من الأشياء، لأننا نفقدُ قدرتنا على الإبصار عندما نكونُ عالقين في قصّة مّا. ومن ثمّة، ليس بوسعنا سوى أن نتخذ مسافة من هذهِ الحياة، لاستحالة أن نكونَ موجودين بالكامل فيها. إنّ القلب الذي تمنحه الحياةُ، والموتُ كذلك، للإنسان يعجزُ عن أن يسعهما، وذلك ما يفسّرُ وجود شخصٍ مّا في داخلنا يكتفي دومًا بالمشاهدة في صمتٍ، شخصٌ لم يمرّ عليه سوى النادرُ من الأحداث. لقد أتيتُ إلى العالم

في ربيع العام 1951 ثمّ غفوتُ. ثمّ التقيتك في خريف العام 1979 واستيقظتُ من غفوتي. ثمّ حدث أن وجدتُ نفسي عاطلاً عن العمل في صيف العام 1995، ومتجمّدًا من البرد. كانت وظيفتي هي أن أتأمّلك وأحبّك. وهي وظيفة حقيقيّة بدوام كامل. فطوال ستة عشر عاما، كنتُ أكثر رجال العالم انهماكا في عمله، وعملي هو الجلوسُ في الظلّ ومراقبتك ترقصين على الطرقات.

مازالت الطرقاتُ هناك مفتوحةً، بيد أنّك رحلتِ عن الدنيا. أحيانًا، أفكرُّ في يوم وصول جثمانك إلى كنيسة «سانت-أوندراس» الصغيرة، قادمًا من «ديجون»، ساعتين فقط قبل انطلاق المراسم. يومها صار ذهني يحوّمُ مثل نحلةٍ حول النعش الذي أخرجهُ موظفو مؤسسة الدفن من سيّارة الموتى، قبل أن يضعوه داخل الكنيسة، قرب المذبح العالي. ثمّة أمرٌ مّا حدث هناك وغيّر كلّ شيء إلى الأبد. صحيحٌ أنّهُ ليس بالأمر العظيم أو التافهِ، بيد أنّي شعرتُ بالدّمِ يغرقُ عينيّ، حتّى شلّ تفكيري تمامًا وعجزتُ عن الرؤية. لقد بدا لي الأمرُ وكأنّهُ تذكيرٌ بضرورة العودة إلى الواقع، أو كما يقال، تذكيرٌ باحترام نظام الأشياء.

مازلتُ حيّا، أتخذُ المسافةَ نفسها من الحياة، وأتأمّلُ الطرقات نفسها. أتأمّل فيها كلّ ما يشبهك أكثر، كلّ ما يحرقُ، ويرقصُ، ويغنّي، ويأمل، ويفاجئ، ويستمتعُ. أجل، هذا هو أكثرُ ما يشبهك، ومع ذلك، ما أراهُ يشبهك ولا يشبهك في الآن نفسه.

أنطلعُ إلى الثلج الأبيض. أتطلّعُ إلى الثلج الأبيض وأرى ورودا حمرا. أتطلّعُ إلى ثلج نهاية هذه السنة الأبيض وأرى الورود الحمر أمام منزل أختكِ في «سانت-أوندراس». كانت الورودُ قد ذبلت واستحالت إلى كومةِ أغصان سوداء معذّبة، ومع ذلك لا أفكّرُ فيها كورود حمر، بل إنّي أراها كذلك حقّا، أرى احمرارها، ومرحها وتمايل رؤوسها قريبا من حقل العشب الأخضر الممتدّ على مرمى البصر. أرى ما لم يحن أوان عودته بعد لكني أعرفُ أنّه سيعودُ. أرى الشتاء كليلةِ صيف. وأسمعُ أغنية أعرف أنّك لن تسمعيها مجدّدًا. ثمّة عندليبٌ يقفُ على غصنٍ عال ويغنّي. غنّ أيّها العندليب، غنّ، يا من تملكُ قلبا مبتهجًا، بينما يشرقُ قلبي بالبكاء[6].

قلبي لا يبكي يا «غيزلان». حسنًا، هو يبكي بالفعل، ولكن تحت دموعهِ ثمّة ضحكة، كما توجدُ الورودُ الحمر تحت الثلج الأبيض. ليس ثمّة في الحياة ما خُلقَ عبثًا، وليس فيها ما يعتمدُ على وجودنا. لقد منحنا هذه الحياة، ومعها أعطيت لنا أشياء أكثر بكثير ممّا سيؤخذُ منّا في موتنا. وها أنا ذا أشعرُ بالخفّة تحت أطنانٍ من الثلج الأسود، وبالرغبة في الابتسام، وقد حان وضعُ نقطة نهاية هذا الكتاب. ثمّة أوقاتُ للكلام وأخرى للصمت. سأمضي هذا الشتاء صامتًا؛ إذ ليس بوسعنا أن نتقرب من وردة حمراء إلاّ في الصمت. ثمّة كومة من أغصانِ سوداء معذّبة داخل قلبي، بيد أني

---

6 - مقطع من أنشودة فرنسية قديمة للأطفال بعنوان: "النافورة الصافية".

سأتركها تحمرُّ وتتفتّح. لا تساورني الشكوكُ بخصوصِ المكان الذي تقيمين فيه حقّا، لأنّي أعرفُ أنّك مختبئة داخل قلب وردةٍ حمراء. وعندما أذهبُ إلى المقبرة، أتطلّعُ إلى قبرك وأجدهُ مغطّى بالأسماء، فتضيعُ منّي الأفكارُ، أو أفكّر في أشياء عديمة القيمة، كأن أقول لنفسي إنّك موجودة على بعد مترينِ تحت قدميّ، مترين أو ثلاثة، لا أعرفُ لماذا أفكّرُ في ذلك، ولا أصدّقُ ما أفكّر فيه، ولكن تلك الفكرة تحديدا تداهمني بغتةً، تداهمني حين أدورُ على عقبيّ، وأراك في اتساعِ المنظر الطبيعيّ وانفتاحه، في جمال الأرضِ والسّماء اللامحدود، وفي كلّ مكانٍ على امتداد الأفق. أجل، إنّي أراك في اللحظة التي أديرُ فيها ظهري إلى قبرك.

لقد فهمتُ يا «غيزلان»، لقد فهمتُ، سأواصلُ مباركة هذهِ الحياة التي غادرتها، وسأستمرُّ في حبّها، أكثر فأكثر، فمثل هذا الحبُّ يجب أن يُتغنّى بهِ، عند النافورة الصافية[7]، فوق درجات القصر، قُصّت نباتاتُ الغار، وهذا أمرٌ جيّد، ومع ذلك، سأمضي إلى الغابة لأقطف باقةً منها...[8]

إذا وجدتَ الزّيزَ[9] نائمًا،

فلا تؤذهِ،

---

7 - عنوانُ أنشودة فرنسية للأطفال.

8 - مقطع من أنشودة فرنسية للأطفال بعنوان: "لن تذهب إلى الغابة مرّة أخرى".

9 - الزيز أو الصرناخ، حشرة تصدر صوتا يشبه كلمة زيز، وتسمّى أيضا "زيز الحصاد". غير أن اسمها باللاتينية هو سيكادا (Cicada). تعيش هذه الحشرة في كامل بلاد العالم، لكن أكثر انتشارها يكون في الأماكن الجافة مثل الصحارى.

سيأتي العندليبُ

ويوقظهُ بغنائهِ...